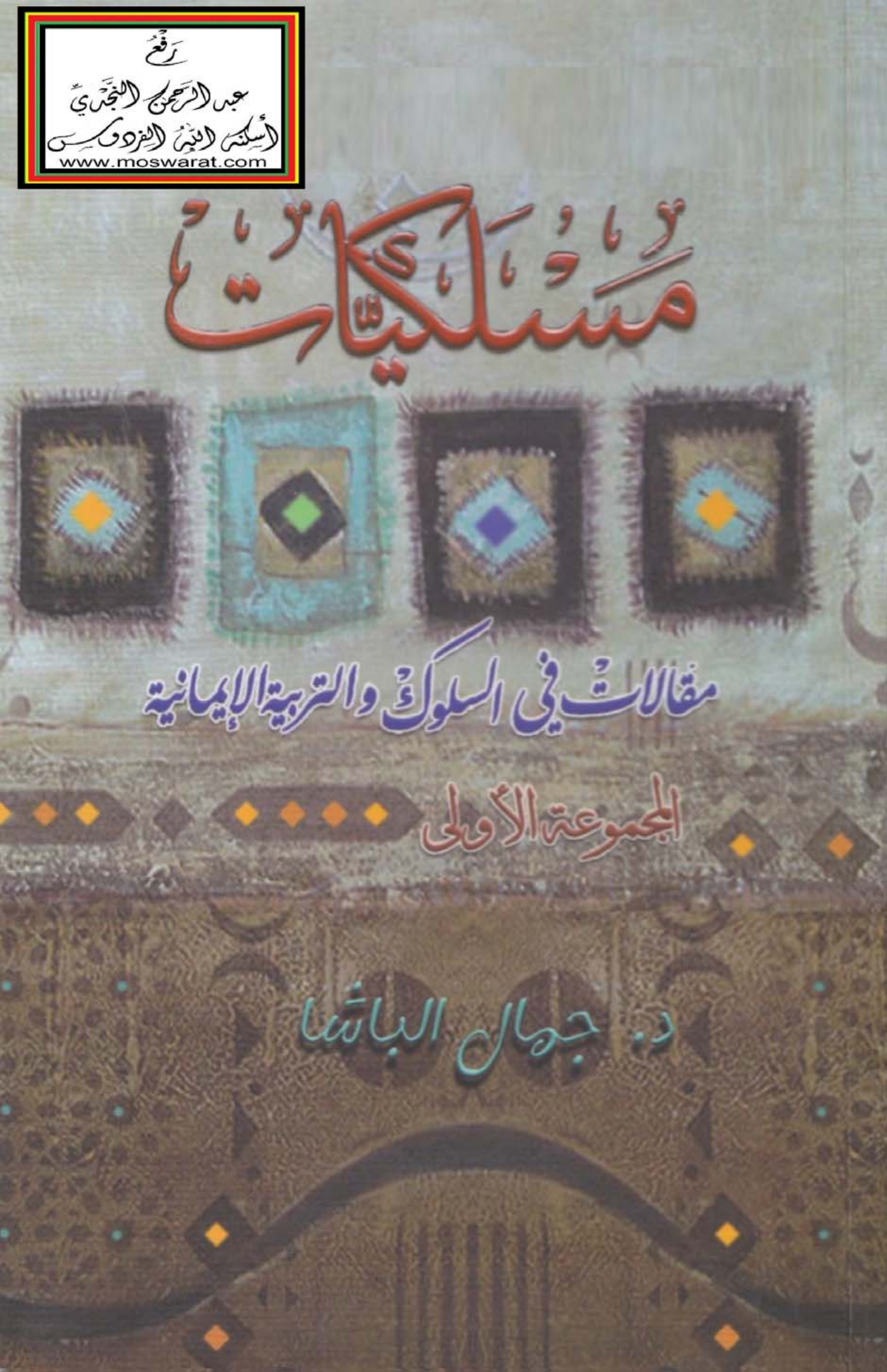


مسلكيات
مقالات في السلوك والتربية الإيمانية
المجموعة الأولى
د. جمال الباشا


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مقالاتٌ في السُّلوكِ والتَّربيةِ الإِيمانيَّة

بقلم

د. جمال الباشا

الطبعة الأولىٰ

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/٣/١٣١٤)

٢١١

الباشا، جمال محمد

مسلكيات مقالات في السلوك والتربية الإيمانية/ جمال محمد الباشا.ـ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٦.

(١٢٨) ص

ر.إ: (٢٠١٦/٣/١٣١٤).

الواصفات: / الثقافة الإسلامية /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-77-410 -3 (ردمك)

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

التربية والتزكية مقصد مهم من مقاصد بعث الرسل الكرام إلىٰ البشرية، بيَّن ذلك القرآن الكريم في عدَّة مواضع، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

والعبادات كلها تسهم في تزكية النفوس بكسرها للعادات، وقطع تعلق النفوس بالمألوفات، وكشف الحجب عن حقائق الأشياء، ليكون العبد من بعد ذلك «ربانيـاً»، يعيش مع الله، ويتمثل قول الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وسلم: **«اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

وقد ألف العلماء قديماً وحديثاً في التربية والتزكية، منهم من أطال وتوسَّع، ومنهم من اختصر وأوجز.

وقد وهب الله تعالىٰ أخانا الدكتور جمال الباشا علماً وذوقاً وتجربة، سال بها قلمه، في عبارة رشيقة، وأسلوب قريب، سهل ممتنع، لا تكلف فيه ولا تصنع، فجاءت هذه المقالات تحمل نورًا وخيرًا كثيرًا، وتفيض رشداً وحكمةً في الخطاب.

أسأل الله أن يتقبل هذا الكتاب، ويرزق مؤلفه الإخلاص، ويكتب له الرواج حتىٰ يتضاعف أثره، ويعظم أجره.

والله الموفق والهادي إلىٰ الصراط المستقيم.

د. مأمون فريز جرار

مُقَدِّمَة

حاجةُ العبد إلىٰ جَرعاتٍ من الوعظ والفكر أشدُّ من حاجته إلىٰ وجبات الطعام والشراب، فبالأولىٰ بناءُ النفس والعقل، وبالثانية بناء الجسد، وخيرُ الكلمات وأصدقُها ما كانت تلقائيةً يفرضها واقعُ الحال دون تكلُّفٍ أو تقعُّر، وكان الهدفُ منها النصحَ والتقويم، والباعثُ عليها الحرصَ الشفَقة.

بين يديك أيُّها المكرَّمُ باقةٌ من قيودِ صيدِ الخاطر، ومرآةٌ لخَلَجاتِ نفسٍ تقلَّبَت في أحوال الإقبال والإدبار، وذاقت عِزَّ الصعود ومهانةَ الهبوط، كتبتُها مقالاتٍ متفرِّقةً في أوقاتٍ شتىٰ شعرتُ بأوانِ بثِّها ونفع الآخرين بها، فتلقَّفَتها قلوبٌ نقيةٌ لم تكن في أخذها بأقلَّ سرورًا ممَّن كتبها وبثَّها، فكتب الله لها بفضله ومَنِّه القبولَ الحسن عند الناس، عامَّتِهم وخاصَّتِهم، وأسمَعَ عبدَه الفقيرَ من عبَقِ الثناء ما ليس له بأهل، وقد كانت دافعةً لمزيد من العطاءِ، وتوالدَت بعدها الأفكارُ تترا، فرُبَّ خاطرةٍ تفرَّع عنها خواطر، وهكذا دواليك، حتىٰ تهيأتْ بين يديَّ مجموعةٌ منها صالحةٌ للتقديم كوجبةٍ أولىٰ من غذاء الروح، يتنقَّلُ فيها القارئُ بين أطباقٍ مذَلَّلةٍ مطوَّعة، ومذاقاتٍ بنكهاتٍ منوَّعةٍ، يتفيأُ فيها من ظلال معاني القيَم التربوية ما تقرُّ به عينُ الطالب، ويستقي من معين مصدره الملهِم ما يروي الظامئَ الراغب، فامنَحها صافيَ الأوقات والأحوال، وأَطلِقْ لها أرحَبَ الخيال، إذ فيها بعضُ الإشارات والرموز حمَّالةُ أوجُه، لم أشأ إفسادَ جمالها بتفسيرها، لتبقىٰ مساحةُ التأملات فيها أوسعَ، والغَرفُ منها أمتَع.

دع عنك لبُرهةٍ صخَبَ الحياةِ الساحقَ، وضجيجَ المادَّةِ السارق، ووهجها البارِق، وهلُمَّ إلىٰ التحليق بالتدقيق، وأمتِع بمدارسته الأخَ والرفيق، ومِن المولىٰ الهداية والتوفيق.

د. جمال الباشا

عمَّان/ في غرَّة جمادىٰ الأولىٰ/ ١٤٣٧هـ

مسلك (١):

الخبيران

مَن يصلُح للكلام في التزكية والسلوك أحدُ رجلين، كلاهما توفَّرَت فيه الخبرةُ اللازمة لتشخيص عيوب النفس وأدوائها وتوصيف حِمْياتها ودوائها.

الأول: طبيبٌ حاذِق في مجال القلوب، كسَب خبرته من كثرة المطالعة والبحث والتفتيش، وبممارسة التطبيب علىٰ أصناف المرضىٰ ومراقبة أحوالهم، وهو في الوقت نفسه صحيحُ البدن معافىٰ من الأسقام، لأنه أعلم بها وبمداخلها، وملتزم بنفسه فيما يرشد إليه الآخرين، فهو ينأىٰ عنها وينهىٰ، وهذا حال مَن فتَح اللهُ عليه في العلم والعمل.

وأما **الثاني**: فهو المريض المبتلىٰ بالداء الذي ذاق آلامه وأدرك عواقبه وآثاره في نفسه، وقد جرَّب أصنافًا من العقاقير وأحسَّ بفاعليتها وتفاوتها في دفع السقم وإحلال العافية، فقد يكون هذا المبتلىٰ بالداء أوسعَ خبرةً من الأول، وأدقَّ في وصف الأعراض وتشخيصها، لأنَّ من ذاق عرَف، حتىٰ إنَّ الأمثال الشعبية لم تُغفل هذا المعنىٰ فقال الناس: (سَل مجربًا ولا تسل حكيمًا)، أي: طبيبًا.

لقد ذكرتُ هذه الخاطرةَ وجعلتُها في صدارة خواطري في (**مسلكيات**) لأني أعتقد أنَّ من الواجب عليَّ أن أبيِّن للقارئ أنَّ الذي يكتب في هذا المجال ليس بالضرورة أن يكون من خبراء الصنف الأول، بل قد يكون من خبراء الصنف الثاني، وهذا الذي جرَّأني علىٰ الكتابة.

وعليه فإني أستدرك علىٰ المثل الشعبي السابق وأعدِّله ليكون:

(سَل عليمًا.. مجرّبًا أو حكيمًا)

مسلك (٢):

خطان متوازيان

دعوةُ نبيِّنا ﷺ تقومُ علىٰ ساقين: «**يزكِّيهم ويعلمُهم**».

فالتزكيةُ لا تكونُ بغير علم، والعلمُ النافعُ لا يتحصَّلُ إلا بالتزكية، وهكذا فالعلاقةُ بينهما طرديَّة، زيادةُ أحدِهما تؤثّرُ في زيادةِ الآخر، ونُقصانُهُ يؤثّرُ في نقصانِه، وارتقاءُ سُلَّمِ الصلاحِ إنَّما يكونُ بتَناوبِ الخُطوتين ومُحالٌ أن يكون بقَدَمٍ واحدة.

إنَّ الانشغالَ بالعلم المجرَّد عن تهذيبِ السلوك يورِثُ آفاتٍ قلبيَّةً باطنةً هي أخطرُ من آفاتِ الجوارحِ الظاهرة.

والانشغالُ بالثاني عن الأول ضلالٌ يوردُ صاحبَهُ سبيلَ التيهِ والعَمىٰ.

والناسُ هنا أربعَة:

أكملُهم، مَن جمَعَ بين العلم والتزكية، وهو سبيلُ أهل الهدىٰ والرشاد، فهو يعلَمُ، ويعمَلُ بما يعلم، فيورثُهُ اللهُ علمَ ما لم يعلم، فهو يتَّقي اللهَ ويُعلّمُهُ اللهُ.

وشرُّهم مَن فقدَ الثنتَين، فلا رشادَ عقلٍ ولا صلاحَ نفس، وأولئك كالأنعام بل هُم أضلُّ.

والثالثُ، وهو حالُ طالبِ المسائل والفروع العلمية، الذي حظُّهُ منها الحِفظُ والسَّردُ، ولا نصيبَ له في التزكيَةِ والسلوك، فأعراضُهُ الفتورُ والجَفاء، وكثرةُ المِراء، وقسوةُ القلبِ، وجفافُ العَين، وثِقَلُ الطاعة.

والرابعُ هائِمٌ علىٰ وجههِ في السَّعي لغاياتٍ ومقاماتٍ عالية، يسمعُ عنها ويُمَنّي النفسَ بها ولا يعرفُ مسالكها التي توصلُ إليها، وقد يُفني عمُرَهُ مُراوحًا مكانَه.

والخلاصَة:

العلمُ بلا تزكيةٍ جَفاء

والتزكيةُ بلا علمٍ هَباء

والعلمُ مع التزكيةِ قُرْبٌ وهَناء

*****

مسلك (٣):

التزكية: تنقية وترقية

التزكية: هي طهارةُ النفس وسلامةُ القلب وسموُّ الروح.

ومعارجُ ارتقاء العبد في مدارج تزكية النفس علىٰ ثلاث مراتب: (التخلية، والتحلية، والترقية).

الأولىٰ: تخليةُ النفس عن الاستجابة لنوازع الشر والهوىٰ، وكبحُ جماحها، وفطامُها عن قبيح العادات والصفات، والتخفُّفُ من أثقال عوالقها الأرضية وانجذاباتها المادية الحيوانية، استعدادًا للتحليق إلىٰ الملكوت الأعلىٰ.

أرأيت لو أنَّ رجلًا بدينًا بطينًا أراد دخولَ سباقٍ للعَدْو، وهو مع بدانته تحيطُ به قيودٌ من السلاسلِ في يديه ورجليه وعنُقه، قل لي بربِّنا كيف سيسبقُ؛ بل كيف سيعدو؟!

من كان جادًّا حقًا في دخول المِضمار وتحقيقِ ما يصبو إليه من السَّبقِ فلا بدَّ له من أمورٍ ثلاثة:

الأول: كسرُ السلاسل التي تعيقُ حركتَه وتُثقِلُ سَيرَه.

الثاني: الدخولُ في دورةٍ تدريبيةٍ تأهيليةٍ ترفعُ من مستوىٰ لياقته البدنية بالتدريج، وتُنقِصُ من وزنه الزائد.

الثالث: هو الدخول إلىٰ المضمار بكامل التجهيزات الرياضية اللازمة.

إن فعَل ذلك كانت فرصتُه في إحراز مركزٍ متقدم كبيرةً، وقد سعىٰ لها سعيَها.

هذه قصةُ العباد مع التزكية.. من أرادَ بلوغَ الترقيةِ فعليه أولًا بالتخلية ثم التحلية.

فالأرضُ المعشبةُ لا ينفعُ بذرُها ما لم يتمَّ استصلاحُها واقتلاعُ أشواكها.

ومثلُ ذلك المتلطِخُ بالقاذورات لا يُصلحه الطيبُ، وهو إلىٰ الصابون منه أحوج، فإذا تطيَّبَ بعد الغُسل نفعَه وأصلحه.

والخلاصَة:

(لا يقدرُ علىٰ التحليق إلا المتَخفِّفون)

*****

مسلك (٤):

معركة المصير

المعركةُ الكبرىٰ التي يخوضُ العبدُ غمارَها مدىٰ الحياة وبلا هوادَة هي معركتُه داخل كينونته مع نفسه التي بين جنبيه، وكلُّ ما سوىٰ ذلك من المعارك تبعٌ لها.

فالنفسُ البشريةُ تتجاذبُها نزعتان إلىٰ طرفين متعاكسين؛ نزعةُ خير وصلاح، ونزعة شرٍّ وفساد، قد غرَسَها في جذور النفس مَن سوَّاها وألهَمَها فجورها وتقواها، فقابليةُ الفجور والتقوىٰ في النفس قد تبلغُ آمادًا بعيدة.

فمن كانت نزعتُه نحو (التقوىٰ) هي الغالبة يمكن أن يرقىٰ في مدارج كمالاتها صعودًا حتىٰ يفضُلَ علىٰ الملائكة!!

ومن كانت نزعتُه نحو (الفجور) هي الغالبة يمكن أن يهبط في دركات انحطاطها سفولًا حتىٰ يصيرَ شيطانًا مريدًا.

والناسُ بين هذين الطرفين متفاوتون، ومنزلةُ المرء بحسب قرب منزله من هذا الطرف أو ذاك، ومقامُه بحسب موضع إقامته.

علىٰ المـُحارِبِ أن يعلمَ أنَّ هذه المعركةَ الكبرىٰ ليس من أهدافها أن يقتلعَ العبدُ الهوىٰ من جَذر نفسه، فذاك هو المـُحال، ولم يأمر به ذو الجلال، بل المأمورُ به هو نهيُ النفس عن الهوىٰ وترويضُها ومجاهدتـها لتنضبط بميزان الشرع، وإطلاق شهواتها في حدود المأذون به، وليس الكبت بمُطلَق المنع.

ميدانُ الصراع في هذه الدائرة هو الأضيقُ لكنَّه الأخطر، فالمنتصرُ علىٰ ذاته سينتصرُ في كلِّ الميادين لا محالة، والمنهزمُ فيه سينهزم في كلِّ الميادين لا محالة.

(فمن اتقىٰ ارتقىٰ، ومن اتبع الهوىٰ هوىٰ)

*****

مسلك (٥):

مخرجاتُك مدخلاتُك

من أوجُه الشبه بين الإنسان والحاسوب أنَّ كُلًّا منهما له مدخلات ومخرجات وصندوق معالجة، والقاعدةُ المهمَّة في كليهما أنَّ المخرجات من جنس المدخلات!!

فلن يعالج الحاسوبُ أيَّ بياناتٍ لم يتعرَّف عليها، وبالتالي لن يعطيك أيَّ مخرجاتٍ بلا مدخلات.

ومع الإنسان الأمرُ ذاتُه في ذاته!!

فمخرجاته التي هي أقواله وأفعاله، والتي يُعبَّر عنها بالأخلاق والسلوك، لم تنشأ ولن تنشأ من فراغ، بل هي معلومات أولية تسللت إلىٰ وعيه فعالجها صندوق المعالجة وهو القلب، وتبلور ذلك لأحاسيس ومشاعر انفعالية باعثة علىٰ الفعل.

وبوابات الدخول إلىٰ المعلومات البيانية هي الحواس الخمس، وأخطرُها بوابتان، السمع والبصر!!

فمن شدَّد الحراسةَ علىٰ مداخل تلك البوابات سلمت خواطرهُ ومن ثَمَّ انفعالاتُه، ومن ثَمَّ أفعاله وسلوكياته، ومن أهمل الحراساتِ فسدت مدخلاتُه، ومن ثَمَّ خواطرُه، ومن ثَمَّ انفعالاته، ومن ثَمَّ أفعاله وسلوكياته.

وكما أنَّ الفيروسات التي تتسلل مع المدخلات إلىٰ قلب الحاسوب علىٰ درجات في القوة، قد تصلُ أحيانا إلىٰ إتلاف عددٍ من الملفات، وتحتاج الآلةُ بعدها إلىٰ عملية تنظيف شاملة يخسر فيها كثيرًا من المدخلات النافعة،

وأحيانًا تؤدِّي إلىٰ شطب البرامج بالكلية، فكذلك من تسللت فيروسات الأمراض القلبية إليه، فهي علىٰ درجات كذلك، فبعضها يزول بعمليات التنظيف والمسح بالاستغفار والحسنات الماحية، وبعضها قد يصيبُ العبدَ في مقتل.

(فاختر لمخرجاتك فإنها مدخلاتك)

*****

مسلك (٦):

ملفاتُك خطَراتُك

حواسُّ المرء هي نوافذُه لمدخلاته إلىٰ قلبه، وهي التي تتألف منها ملفاتُهُ المتنوعة، فبعضُها صور لكل ما وقعت عليه عينُه من مشاهد ثابتة أو متحركة، وبعضُها مقاطعُ صوتية مسموعة لكل ما وصل إلىٰ سمعه، تستقرُّ في دماغه وصفحة قلبه كاستقرار ملفاته علىٰ سطح مكتبه.

وهي بمجموعها تمثل المادةَ الأوليةَ لخواطره المختلفة التي ستتبلور منها شخصيته.

والملفاتُ بكلِّ أنواعها، فيها ما هو صالحٌ يبعثُ النفسَ علىٰ الخير والحق، ومنها ما هو فاسد يبعث النفس علىٰ الشر والباطل.

وشخصية الإنسان هي خواطرُه الباطنة التي يتفاعل معها وتُحرّك فيه الرغبةَ في الفعل أو الترك.

الخطير في الأمر، أن المـُخرجات (السلوك) لا تفنىٰ وتذهب إلىٰ العدم، بل ينشأ عنها تغذيةٌ راجعة، تعود من جديد بصورة مدخلاتٍ جديدة، لتُغذّيه إيجابًا أو سلبًا.

وفي النهاية؛ سلوك الإنسان هو شخصيته، وشخصيته هي خواطره، وخواطره هي ملفاته التي جمَّعها من مدخلاته، يفتحها ويغلقها وقتما شاء، وأحيانًا (وهو الأخطر) قد يفقدُ السيطرةَ والقدرة علىٰ التحكم بفتحها وإغلاقها، ومن الملفات الفاسدة ما يُفتح له في صلاته، بل حال كونه أقربَ ما يكونُ من ربه عند سجوده.

بقي أن أشيرَ إلىٰ أن هذه الملفات هي صاحبُه الذي لا يفارقه، في خلوته أو جلوته، ومن ذاق الحبسَ الانفراديَّ علم أن الشيءَ الوحيد الذي لا يستطيعُ أحدٌ منعَه من الدخول معه هو رصيدُه من تلك الملفات التي سوف يعيشُ معها فقط.

وإذا أُنزل في قبره كانت تلك الملفاتُ هي الشيءَ الوحيد الذي سيرافقُه طوالَ فترة البرزخ والذي سيتجسَّدُ له بصورة حسنة تؤنسه، أو صورة قبيحة توحشه.

فيا أخي السالك..

نظِّف ملفاتك واحرص علىٰ إبقائها كذلك

وأنت مخيَّرٌ الآن في رسم صورة جليس البرزخ

*****

مسلك (٧):

محركاتُ الدفع

كلُّ عضوٍ في الإنسان إنما خلقه الله لأداء وظيفةٍ خاصةٍ به، وتؤدِّي الأعضاءُ بالجملة وظيفةً تكاملية مشتركةً غايتُها تحقيقُ العبودية الخالصة لله وحده.

وظيفة العقل في المجموعة هي تحليل المدخلات وتصنيفها، فيميِّزُ بين النافع والضار، والخير والشر، وكلُّ ما يمكن تصنيفه في دائرة المعرفة، ومن ثمَّ نقلُ الخُلاصات إلىٰ القلب وعرضُها عليه ببياناتٍ مُجرَّدة، يستقبلها القلبُ بدوره ويتفاعلُ معها، ويعالجها لتصير مشاعرَ وأحاسيس تنشأ عنها الإرادةُ والهمُّ بالفعل، فتكونُ بمثابة محركات الدفع التي تحرِّك سائرَ الجوارح.

ومحرّكاتُ الدفع الرئيسة ثلاثة:

المحبة والرجاء (للدفع الأمامي)، والخوف (للدفع الخلفي)، فبدون هذه المقوِّمات لا ينهضُ المرءُ ولا تنبعث إرادتُه إلىٰ شيء، فهو إنما يحركه إلىٰ فعلٍ ما محبتُه لشيءٍ ما، أو رجاؤه فيه، أو خوفه منه.

ينشأ عن هذه المقدِّمة؛ أن الإنسان الذي لا يسلك طريقه إلىٰ الله تعالىٰ، ولا تتحرك فيه له أيُّ جارحةٍ هو صاحب قلبٍ معطوبٍ بالكلية، ومحركاته تالفة.

ومن كان سيرُه فيه ضعيفًا أو مترنحًا ففي قلبه من العطَب بحسب سَيره.

ومن صلُحت محركاتُ الدفع في قلبه وسلمت من الآفات، سار علىٰ الطريق بنشاطٍ وهمَّةٍ واستقامة.

ولا تكادُ قلوبُ العباد تخرج عن هذه القسمة.

* **فإما قلبٌ ميِّت،** قد ختم الله عليه، فلا ينتفع بذكرىٰ ولا إرادة فيه لهدىٰ.

* **أو قلبٌ سقيم،** فيه من العلل ما يُعيقه عن الاستقامة في السير، فهو يقوم ويسقط، ثم يقوم ويتابع سيره، وهكذا.

* **أو قلبٌ سليم،** في سيره مستقيم، مداومٌ علىٰ تفقُّد أحواله وإجراء ما يلزم من أعمال الصيانة، يوشك أن يبلغ غايتَه، علىٰ أحسن حالٍ وأسعَدِ خاتمة.

*****

مسلك (٨):

الدفع أهون من الرفع

السؤال الأكثرُ رواجًا بين فئة الشباب وهم يواجهون موجاتٍ من عواصف الفتن والإفساد العصرية العاتية، التي تهدِّدُ دينَهم وإيمانهم:

ما السبيلُ الأمثل إلىٰ التصدي لتلك الهجمات؟

وفيما يلي وصفةٌ علاجيةٌ تقعيديَّةٌ نافعةٌ ناجعة، فاشدُد بها يديك.

إنَّ مما لا يسَعُ الراغبَ في تزكية نفسه جهلُه، أنَّ القلب السليم هو قلبٌ سلم من ثلاثة أمور:

- **أولًا**: سلم من الشرك والنفاق، فهو علىٰ التوحيد والإخلاص.
- **ثانيًا**: سلم من البدعة فهو علىٰ سبيل هدىٰ وسنة.
- **ثالثًا**: سلم من المعصية والتعلق بها، فهو علىٰ طاعة واستقامة.

وأمراض القلوب تنقسمُ إلىٰ مجموعتين رئيستين:

- **الأولىٰ**: أمراض (شهوات).
- **الثانية**: أمراض (شبهات).

وكلُّ مرضٍ منها يبدأ صغيرًا ثم يتعاظمُ حتىٰ يصبح كبيرًا مزمنًا، وهو (الإدمان).

فعلاج أمراض الشهوات إنما يكون بالصبر ومجاهدة النفس أوَّلَ وهلة، وسيُعانُ المرءُ علىٰ دفعها بصدق اللُّجوء إلىٰ الله، والبراءة من الحول والقوة الذاتية إلىٰ حول الله وقوته، والتفكير بسوء العاقبة.

وأما علاج أمراض الشبهات فإنما يكون باليقين، الذي منشؤه التعلُّم، وكذلك هدايةُ الله التي ينالها من صدَق الله في طلبها.

وبالجملة؛ فكلُّ الأمراض التي في المجموعتين تخضع لقاعدةٍ طبيةٍ شهيرةٍ هي:

(الوقاية خير من العلاج)، ويقابلها القاعدةُ الشرعية الكلية المهمَّة، وهي نافعة في كلِّ شيءٍ: (الدفعُ أهونُ من الرفع)!!

فدفعُ العدوِّ الصائل وهو علىٰ حدود البلاد أيسرُ من رفعه بعد دخولها واحتلالها.

ولبسُ الدرع الواقي أيسرُ من نزع السهام.

وكذا أمراضُ القلوب، والشهوات علىٰ وجهٍ أَخَصّ، فدفعُها بشيءٍ من مجاهدة النفس أوَّل هجومها أهونُ بكثيرٍ من مُدافعتها بعد أن تصبحَ عاداتٍ يُدمنُ عليها صاحبُها.

ومقاومةُ الشابِّ داعيَ نفسه لتناول السيجارة الأولىٰ أسهلُ بكثيرٍ من مقاومة داعيها للإقلاع عنها بعد الإدمان.

ومثل ذلك دفعُ النظرةِ الأولىٰ، والمكالمةِ الأولىٰ، والأغنية الأولىٰ، والجَرعة الأولىٰ، والرشوة الأولىٰ،... وهكذا دواليك.

أيُّها السالكُ الباحثُ عن صلاح قلبه:

إنها وصفةٌ علاجيةٌ تربويةٌ عظيمةُ القدر فاجعلها نصبَ عينيك، وكلما حدَّثتك نفسُك بأمرٍ سوء، فقل لها:

(يا نفسُ... الدفع أهون من الرفع)

مسلك (٩):

مفتاح المجاهدة

لعلَّ قائلًا يقول: قد علمنا أن الشهوات تُدفع بالمجاهدة، ولكني أجاهد نفسي ولا أستطيع قهرها فماذا أفعل؟

والجواب: أن نعلم أنَّ العبد يحتاج في المجاهدة إلىٰ قوَّتين:

الأولىٰ: قوَّة إدراك الحق، وهي: (القوَّة العلمية).

الثانية: قوَّة إيثار الحق، وهي: (القوَّة العملية).

والناس مع هاتين القوَّتين أربعة أقسام:

• **الأول**: من امتلك القوَّتين معا، فهو قوي في معرفة الحق وقوي في العمل به، وذاك المستقيم علىٰ الإيمان والعمل الصالح، وهو خير الأربعة.

• **الثاني**: من فقد القوَّتين معا، فلا علم له بالحق، ولا قوَّة له علىٰ العمل، وهو شرُّ الدوابِّ عند الله، الصم البكم الذين لا يعقلون.

• **الثالث**: من يمتلك القوة العلمية، لكنه فاقد الإرادة، فلا قوة له علىٰ العمل بما يعلم، وهذا فيه شبه من اليهود المغضوب عليهم.

• **الرابع**: من أوتي القوة العملية والإرادة الحتمية علىٰ التطبيق، ولكنه فاقد للقوة العلمية، فيعبد الله علىٰ جهل، وهذا فيه شبه من النصارىٰ الضالين.

والمؤمن العاصي لم يفقد القوتين بالكلية، بل لديه ضعف في إحداهما أو كلتيهما.

وتفاوت العباد في درجات الصلاح والاستقامة بحسب تفاوتهم في تلك القوتين.

والعبد الصالح يدعو ربه ويستعينه في كل ركعة أن يجعله من أهل الصراط المستقيم الذي عليه الصنف الأول، وأن يصرفه عن سبيل الصنفين المتقابلين: الثالث والرابع.

وهما يشملان الثاني من باب أولىٰ.

أيها السالك:

مفتاح الحل الأول: الخشوع في الصلاة، واستحضار هذه المعاني عند تلاوة الفاتحة، والتي تتضمن الاستعانة به وحده علىٰ طاعته، والبراءة من الحول والقوة الذاتية، إلىٰ حوله وقوته.

ويكون هتاف القلب الدائم: لا قوة إلا بالله.

*****

مسلك (١٠):

أقسامُ الجَمال

عندما تنقلبُ معاييرُ التقييم للأشخاصِ يكونُ الحكمُ علىٰ جمالِ شخصٍ ما من خلالِ طولِ قامتهِ ولونِ بشَرَتِهِ وقَسَماتِ وجهِه... إلخ.

وهذه هي صورةُ الظاهِرِ التي لا يَدَ له في تشكيلِها، فلا يستحقُّ المدحَ علىٰ حُسنِها ولا الذمَّ علىٰ قُبحِها، إنَّما يستحقُّ المدحَ علىٰ صورتِهِ الباطنةِ التي هي جمالُ التقوىٰ والعِفَّةِ وطهارَةِ النفسِ وسلامةِ القلبِ والتي سعىٰ في بنائِها وتكميلها، والتي يُسمَّىٰ انعكاسُها علىٰ الظاهِرِ بحُسنِ الخُلُق، وضدُّها يُسمَّىٰ بسوءِ الخُلُق.

والناسُ في هذه القِسمَةِ أربَعَةُ أصناف:

• **الأول**: جمعَ بين جمالِ الباطِنِ والظاهِرِ، وهذا أكملُ الأربعة، ومثالُهُ جميعُ الأنبياءِ وفي مُقدّمَتِهِم نبيُّنا محمَّدٌ ونبيُّ اللهِ يوسُفُ عليهم جميعًا صلواتُ اللهِ وسلامُه.

• **الثاني**: مَن جمَعَ بينَ قُبح الباطِنِ والظاهِرِ، فهو ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض، وهو شرُّ الأربَعَة، وأظهَرُ مثالٍ عليه الأعورُ الدجَّال.

• **الثالثُ**: مَن كان جميلَ الباطنِ قبيحَ الظاهِرِ، وهذا لا تُضيرهُ صورتُهُ الظاهرةُ لفيوضاتِ روحِهِ الراقيةِ علىٰ ظاهرِهِ ومَحوِها، فلا يكادُ الناظِرُ يلمَحُها، وقد كانَ عطاءُ بنُ أبي رَباح أسودَ اللونِ أعوَرَ العينِ أفطَسَ الأنفِ أعرجَ أشَلَّ، وكانَ سيِّدًا من ساداتِ مكَّةَ وفقهائها الكبار، وكان مَوئلًا للعُلماءِ يهابُهُ الملوكُ ويخطِبونَ ودَّه.

• ويقابلُهُ الرابعُ وهو مَن جمَّلَ اللهُ صورتَهُ الظاهِرَةَ وقَبَّحَ هو صورتَهُ الباطِنَةَ بسوءِ خُلُقِهِ، وقد يكونُ جمالُ صورتِهِ الظاهرَةِ أحدَ أسبابِ فسادِ صورَتِهِ الباطِنَة، ويكفيكَ مثلًا له أبو لهَبٍ الذي لُقِّبَ بذلك لشدَّةِ وضاءَةِ وجهِهِ الأبيَضِ المُشرَبِ بالحُمرَةِ!!

ما أغنىٰ عنهُ مالُهُ ولا جمالُهُ شيئًا فهو البغيضُ المَقيت.

وأسوقُ لكَ قاعدةً بديعَةً في حُكمِ الثالثِ والرابعِ وهُما مُتعاكِسان:

(جمالُ الباطنِ يَمحو قُبحَ الظاهِرِ وأثَرَه، وقُبحُ الباطِنِ يمحو جمالَ الظاهرِ وأثَرَه).

فعادَ الأمرُ إلىٰ صورةِ الباطِنِ حُسنًا وقُبحًا.

فيا مَنْ جمَّلَ اللهُ صورتَهُ الظاهرةَ لا تُفسِدْها بقُبحِ صورتِكَ الباطنة.

ويا مَن حُرِمَ جمالَ الظاهِرِ استَدرِكْ بِجمالِ روحِكَ وطباعِكَ وحُسنِ دينِكَ ومنطِقِكَ، فهو موضِعُ الأُلفَةِ والنُّفرَةِ عند المُخالَطَة.

قد ذَكرتُ لكَ أيُّها الموَفَّقُ قِسمَي الجمالِ؛ الظاهِرِ والباطِنِ، وبَقيَ جمالٌ لم يُشِرْ إليهِ أحَدٌ قبلي ألا وهو..

كاتبُ هذا المَقالِ: جمال الباشا.

*****

مسلك (١١):

صناعةُ الكلمة

يُمكنك فهمُ العبارة علىٰ وجهين؛ كونُ الكلمةِ مصنوعةً وكونُها صانعةً، وكلاهما أردت.

صناعتُك للكلمة هو إنشاؤها والاعتناءُ بها وبناؤها بكيفيةٍ مؤثرةٍ في المتلقِّي تحققُ بها غايتك فيه.

وذلك الأثرُ الذي تتركه في المتلقي بشكلٍ بنَّاءٍ في وعيه أو سلوكه هو صناعتُها إياه.

لقيتُ أحدَهم يومًا فقال لي: أحياك اللهُ كما أحييتني.. قلتُ: متىٰ وكيف؟!

قال: أنت لا تعلم، ولكني أدخِّرُ ذلك شهادةً لك مني عند الله حين أقِفُ بين يديه، أنَّك مَن دلَّني عليه وأصلحَني معه!!

تركني وذهب بعد أن وقفَت كلُّ شعرةٍ في رأسي.

ولقيتُ أحدَهم فقال: أتذكرُ يومَ خطبتَ عن حكم التدخين قبل نحو عشر سنوات؟

قلت: نعم أذكر.

قال: والله ما وضعتُها في فمي منذ ذلك اليوم.

بعضُ الناس لم يُدرك بعدُ أثرَ الكلمة، فيقللُ من شأنها قائلا: أنتم معاشرَ الدعاةِ والكُتَّابِ ليس لديكم من بضاعةٍ سوىٰ الكلام.

فمثلُ هذا يحتاجُ أن يُذَكَّرَ بأنَّ القرآنَ كلام، والحديثَ الشريفَ كلام، ونطقَ الشهادتين كلام، وخطبةَ الجمعة كلام، وما يلقيه الأساتذةُ في المدارس والجامعات كلام، والموعظةَ والنصيحةَ والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاءَ والذكرَ وإصلاحَ ذات البين، والحكمةَ والشعرَ....كله كلام في كلام.

الخلاصة:

الكلمةُ تُصنع وتَصنع.. السمعُ والقراءةُ مدخلُها، والنطقُ والكتابةُ مخرجُها.

كلَّما أجدتَ صناعتَها أجدتَ الصناعةَ بها.

أدواتُ صناعتها رصيدٌ متراكمٌ من المعرفة ومفرداتها، وركيزتُها الكبرىٰ هي أن تكونَ الكلمةُ قضيَّةَ المتكلِّم.

فالنائحةُ الثكلىٰ ليست كالمستأجَرة

*****

مسلك (١٢):

مُعاداةُ المُعادات

الإبداعُ هو أن تأتيَ بجَديدٍ لم تُسبَقْ إليه.. فإن لم تكُن مُبدِعًا فكُن مُتجَدِّدًا، وإن ارتَقَيتَ فكُن مُجدِّدًا، ولن تُجَدِّدَ حتىٰ تتَجدَّدَ.

ومِن طبائِع النفوسِ حُبُّ الجَديد، كلُّ يومٍ جديدٍ في حياتك هو فرصَةٌ جديدَةٌ لتكونَ إنسانًا جديدًا.

لا تُكرِّر نفسَكَ ولا تتَقَمَّصْ غيرَك، بل كُن أنتَ ولكن بقوالبكَ المُتَجَدِّدَة.

حاوِلْ أن تُجَدِّدَ في كلماتِكَ وعباراتِك، في قِراءاتكَ وكتاباتِك، في طريقَةِ تفكيرِك وأنماطِ سلوكِك، ارتَقِ ولا تقِفْ مُراوحًا في مكانِكَ وأنت ترىٰ كلَّ شيءٍ حولك يتجدَّد.

الماءُ إذا جَرىٰ عذُبَ وإذا رَكَدَ فَسَدَ.

أجمَلُ الأشياءِ في حياتِكَ ستَعتادُ عليها يومًا ما وتملُّها وتشعُرُ بأنَّك بحاجَةٍ إلىٰ أن تعدوَ عليها.

فكما أنَّ النفوسَ جُبِلَتْ علىٰ حُبِّ التَّجديدِ فقد جُبِلَتْ كذلك علىٰ مُعاداةِ المُعادات.

*****

مسلك (١٣):

مقامُ الموافقة

علىٰ خشَبَةِ مَسرَح الحياةِ يجتَمِعُ ثلاثَةٌ مِن ساداتِ التابعينَ وكِبارِ العارفينَ، لِتَنقُلَ لنا فيما بعدُ كتُبُ الرَّقائِقِ ذلكَ الحِوارَ الرَّائِق.

• **الأول**: كنتُ أكرَهُ مَوْتَ الفُجاءَةِ قَبلَ اليَوم، وأمَّا اليومَ فوَدِدْتُ أنّي ميِّتٌ، لِما أتخَوَّفُ من الفِتنَة.

• **الثاني**: لكنّي لا أكرَهُ طولَ البَقاءِ فلعَلّي أُصادِفُ يومًا أتوبُ فيه وأعمَلُ صالِحًا.

• فقيلَ للثالث: أيُّ شيءٍ تقولُ أنتَ؟ فقال: أَحَبُّ ذلك إليَّ أَحَبُّهُ إلىٰ الله.

للّهِ دَرُّكَ أيُّها الثالثُ فأنتَ واللهِ الأوَّلُ، لأنَّ كلًّا من صاحبَيكَ نَظَرَ إلىٰ مُرادِ نفسِهِ واقترَحَ علىٰ سَيِّدِهِ واختارَ بَينَ يَدَيهِ، وأنتَ جَعَلتَ مُرادَكَ عينَ مُرادِ سيِّدِك، واختيارَكَ عَينَ اختِيارِه.

وأنتَ أيُّها المـُحِبُّ الآخَر.

هل أدرَكتَ أرقىٰ مَنازِلِ العارفين؟

هيَ أن تَشعُرَ ببَرْدِ اليقينِ يُلامِسُ شِغافَ قلبكَ فيَستَهِلَّ بصِدقِ التَّفويضِ صائِحًا:

أريدُ ما يُريد..

أريدُ ما يُريد..

مسلك (١٤):

ضَع القلَم

هذهِ الجُملةُ يكرَهُ سماعَها الطالبُ الكسولُ في قاعةِ الامتحانِ عندما ينتهي الوقتُ المُحَدَّدُ لإجرائِه، لأنَّهُ دائمًا وأبدًا غيرُ مُتهَيّئ لأدائِهِ للظروفِ الصَّعبةِ والخاصَّةِ التي كانَ يمُرُّ بها، فبعضُ الأسئلةُ أخطأَ في جوابِها، وبعضُها لم يُجِبْ عليه أصلًا!!

ماذا يصنعُ عند سَحبِ دفتر الامتحانِ من بين يدَيه، فلا مجالَ لإضافةِ جُملةٍ بل ولا حتىٰ كلمةٍ واحدةٍ، ولا يُجدي الاستِرحامُ، فقد قُضي الأمرُ وفاتَ الأوانُ.

كلُّ ما يشعُرُ به في تلك اللحظةِ هو لوعَةُ الندَم وحُرقَةٌ تكادُ تُقَطِّعُ أحشاءَهُ علىٰ ما أضاعَ في وقتِ السَّعَة، ويقولُ في نفسِهِ ياليتَني قدَّمتُ لهذه الساعة.

ويَكبُرُ مقتُهُ لنفسِهِ عندما يَرىٰ الطالبَ المُجِدَّ من أقرانِهِ يُقدِّمُ دفترَهُ للمراقِبِ وقد ارتسَمَتْ علىٰ مُحَيَّاهُ ابتسامةُ الرضا والسرور والشعور بالاطمئنانِ لحُسنِ الأداء، وقد أجابَ عن جميعِ الأسئلةِ في وقتٍ مُبكِّرٍ واستَعَدَّ لتسليمِ أوراقِه قبلَ أن يُقالَ له:

ضَع القلَم

انتَهتِ الحِكايَة!!

*****

مسلك (١٥):

جرعةٌ حاسمة

دونك أيها السالكُ فيما يلي جرعةً منطقيةً حتميةً في فاعليتها المُغذّية لقوتك العلمية، وهي إحدىٰ ركيزتي مجاهدة النفس علىٰ الشهوات.

لقد قررنا سالفًا أن الإرادة هي أصل كل حركةٍ فعلًا وتركًا.

وغايةُ ما تريده النفس تحصيلُ ما تَلَذُّ به في العاجل والآجل، ودفع ما تتألم به في العاجل والآجل.

وهذا ما قام عليه مبدأ الشريعة في الترغيب والترهيب.

وتقوم تلك الجرعةُ علىٰ أساس عرض النفس علىٰ معادلةٍ منطقيةٍ لها طرفان، وكل طرفٍ فيه لذّتان وألمان، ثم تُعقد مقارنةٌ بين أطراف المعادلة وتُعاد صياغةُ مراتب إراداتها.

فليتأمل العاقل في اللذة التي بين يديه وليقارنها باللذة التي ستفوته في الآخرة بسببها، فإنه سيرىٰ البون بينهما شاسعا، فهو كمن يؤثر خرزةً تافهةً علىٰ قصرٍ مَنيفٍ من لؤلؤٍ وذهب.

ثم لينظر إلىٰ مقدار ألم مجاهدة نفسه علىٰ تركها وليقارنه بألم العقوبة علىٰ فعلها، فسيرىٰ البون بينهما شاسعًا كذلك، فهو كمن يؤثر ألم النشر بالمناشير علىٰ مسّ الشوكة.

ومنطق العقلاء الجازم مع تحصيل اللذة العظمىٰ بتفويت الدنيا، ودرء الألم الأعظم بتحمّل الأدنىٰ.

فكيف إذا أضفنا إلىٰ المعادلة مخرجًا جديدًا معتبراً ومؤثرًا.

وهو أن في ترك الحرام لذةً عاجلةً يُجزىٰ بها الطائع قبل الآجلة، وهي لذة الانتصار والغلبة، وحلاوة الطاعة.

وأن في فعل الحرام ألمًا عاجلًا يعاقب به العاصي قبل العذاب الآجل، وهو ذل الهزيمة والانكسار والفشل، الذي يورث ضيقًا في الصدر، ووحشةً في النفس.

تريَّث أيها المبارك عند هيجان داعي الشهوة، واستحضر تلك المعادلة المنطقية للحظة، ولتتهيأ لك تلك الشهوة بصورة الشواء المسموم، وعندئذ حكّم عقلك.

*****

مسلك (١٦):

الخطوة الأولى

التزكية مشروع إصلاحي كبير في عمق النفس البشرية يمتد أثرُه إلىٰ المجتمع بأسره.

والإصلاح هو تغيير الأشياء الفاسدة إلىٰ صالحة، وهي عملية هدم وبناء.. ترميم وإنشاء.

ومن لا يفكر بالتغيير رجلان:

- **الأول**: بلغ منه اليأس والإحباط مبلغًا أيقن معه أنه لا سبيل إلىٰ إصلاح نفسه وتقويم اعوجاجها، ويُقنع نفسه ببعض الموروثات العرفية الفاسدة، كـ (ذنَب الكلب أعوج)، و(الطبع غلب التطبع)، ونحوها.
- **والثاني**: من بلغ به غرورُه وعجبه بنفسه مبلغًا أيقن معه أنه لا حاجة له إلىٰ التغيير، فقد بلغ حد الكمال، وخلا من العيوب والنقائص.

ولهذا أقول:

مبدأ التزكية وأولىٰ درجات سلم التغيير اتهامُ النفس واستشعار النقص وملاحظة العيب، ومن لم يوفق لهذا مخذول، وبينه وبين التزكية بُعد المشرقين.

*****

مسلك (١٧):

أيامُ حياتِك.. أم حياةُ أيامِك

ليس من سَجَع الكُهّان، ولا من سَفْسَطَةِ المتشدِّقين، ولا من نافلةِ كلام المتكلِّفين، بل من حِكَمِ العارفين اليقِظين، فأرْعِها كُلَّك.

(أيامُ حياتكَ لا تملِكُها فالأعمارُ والآجالُ عِلمُها عندَ ربِّي ولا تَقدِرُ أن تزيدَ فيها شيئًا).

أما (حياةُ أيامِكَ) فهي الشأنُ كلُّه!!. أوَتظُنُّ أنَّ كلَّ مَن يتَنَفَّسُ حَيٌّ؟!

إنَّ اليومَ الذي تحياهُ ويستحِقُّ أن يُسَجَّلَ من أيام حياتك هو يومُ الإضافةِ والإنجاز، يومُ البَصْمةِ والأثَرِ الإيجابيِّ الذي تَكسِبُهُ في ذاتِكَ أو تُكسِبُهُ لغيرك.

هو اليومُ الذي تُحلِّقُ فيه روحُك وتزدادُ فيه قربًا مِن رَبِّك.

ليس المُهِمُّ (كم ستَعيشُ) ولكنَّ المُهمَّ (كيف تعيش)؟!

ستُّ سنواتٍ فقط من حياةِ سعدٍ في الإسلامِ كانت كفيلةً بأنْ يهتزَّ لموتهِ بعدَها عرشُ الرَّحمن.

وكم من الناس مَن عاشَ في الإسلام أضعافَ ما عاشَهُ سعدٌ ولم تهتَزَّ لمَوتِه شعرَةٌ لأحَد؟!

ركِّزْ على الـ (كيف)، كيفَ تختارُ لنفسِكَ حياةً كريمَةً في هذه الفانية؟

وكيف ترسمُ لنفسك خاتمةً سعيدةً تستقبِلُ بها الحياةَ الأبديَّةَ الباقية؟

كيف تغادرُ الدنيا بجسدكَ دون ذِكرك.. وبظلّكَ دون بَصمَتِكَ وإنجازِك.

إنَّها برَكةُ الأيامِ التي يُمكِنُكَ أن تتدخَّلَ في صياغَتها فتُنجِز الكثيرَ من قليل.

وإذا سألتَ عن أقصَر الطرُقِ لنَيل ذلك فهو السَّهْلُ العسيرُ.. أنْ يطَّلِعَ اللهُ علىٰ قلبِكَ فلا يراهُ ينبضُ بسواه، حينئذٍ تتنزَّلُ البرَكاتُ الملَكوتيَّةُ وتَهِلُّ الفتوحاتُ الربانيَّةُ، وتَنفَرِجُ لك طاقاتُ الأعمالِ التوفيقيةُ.

هذه المعاني انقدَحَتْ في خاطري حينَما قرأتُ حكمةً تقولُ:

(لا يُمكِنُكَ أن تمنَحَ حياتَك مَزيدًا من الأيام ولكن يمكِنُكَ أن تمنَحَ أيامَكَ مَزيدًا من الحياة).

وتجلّىٰ أمامَ عيني قولُ الحقّ جَلَّ جلالُه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]؟!

اللهمَّ أحينا بدينك وأحيِ بنا دينَك.

*****

مسلك (١٨):

اعرِف نفسَك

من علامات التوفيق أن تكون قويًّا في نقد مواطن ضعفك، ضعيفًا في مدح مواطن قوتك.

*****

مسلك (١٩):

أفِق

يوشِكُ أن يأتيكَ اليقينُ...

فإما نعيمٌ وكَرامَةٍ، أو عذابٌ ومَهانَةٌ.

هي اللحظةُ التي يُكشَفُ فيها الغِطاءُ ويُصبِحُ الغَيبُ شهادةً، ويَرىٰ المرءُ منزِلَهُ في إحدىٰ الدارَين..

شَيِّدْ منزِلَكَ الذي سترحَلُ إليه قريبًا، فالأمرُ أسرَعُ بكثيرٍ ممَّا تتَصَوَّر.

*****

مسلك (٢٠):

غُلامٌ يُبكي الخَليفَةَ

تتوالىٰ الوفودُ لتهنئةِ عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ علىٰ تولّيهِ الخِلافَةِ، ويدخُلُ وفدٌ يتقدَّمُهُ الناطِقُ الرَّسميُّ باسمِهِ، فيعتَرِضُ الخليفَةُ علىٰ صِغَرِ سنّهِ فهو غلامٌ في العاشِرةِ ويصطَفُّ وراءَهُ الأشياخُ الكبارُ، لكنَّهُ سُرعانَ ما سحَبَ اعتراضَهُ عندما ظَهَرَ له رُجحانُ عقلِهِ وحُسنُ منطِقِهِ، وطالبَهُ بأن يواصِلَ حديثَهُ الصادِقَ الناصِحَ الذي لم يتملَّقْ فيه كما يصنَعُ الناسُ عادَةً معَ زُعَمائِهِم في المُناسَباتِ المُماثِلَةِ.

لقد صاغَ الغُلامُ عِقْدًا بديعًا من دُرَرِ الكلام الحَكيم، نقَلَتْهُ كُتُبُ الرَّقائِقِ والوعظِ والأدَبِ، إلا أنَّ جُملَةً منهُ أثارَتْ مكامِنَ في نفسِ الخَليفَةِ وهَيَّجَتهُ علىٰ البُكاءِ، بماءِ الذَّهَبِ يَحِقُّ لها أن تُكتَبَ..(يا أميرَ المؤمنينَ لا يَغلِبَنَّ جَهْلُ الناسِ بكَ معرِفتَكَ بنفسِك)!!

للهِ دَرُّكَ ياغُلامُ ما أنصَحَكَ لوليِّ الأمرِ!!

وللهِ درُّهُ من وليٍّ صالح يتَّسِعُ صدرُهُ لموعِظَةِ غُلامٍ صغيرٍ من رَعِيَّتِهِ، فيُصغي إليها بِكامِلِ وَعيِهِ فتذرِفُ لها عيناهُ.

ما أحوجَنا إلىٰ أن نُسقِطَ تلك الكلِماتِ علىٰ أنفُسِنا.

لأنَّ ثناءَ الناسِ علىٰ شَخصٍ ما ووَصفَه بالديانَةِ والتقوىٰ والصلاحِ هو حُكمٌ ظَنّيٌّ مبنيٌّ علىٰ ظاهِرِ حالِهِ المَستور.

أمَّا ما يَعلَمُهُ المَرْءُ عن نفسِهِ وعيوبِها وتقصيرِها فهو عِلمٌ حقيقيٌّ قَطعِيٌّ مبنيٌّ علىٰ اليقين.

فكيفَ يجوزُ لِعاقِلٍ أن يُقَدِّمَ ظنَّ غيرِهِ علىٰ يقينِ نفسِهِ!!

إنَّهُ الغُرورُ وانخداعُ النَّفسِ بالزورِ والباطِلِ الذي لا يُغني من الله شيئًا يومَ تُبلىٰ السَّرائرُ..

هذا ما أبكىٰ الإمامَ العادِلَ والعبدَ الصالحَ، فمتىٰ نبكي لما أبكاه؟!!

*****

مسلك (٢١):

كأنَّك تَراه

مَشهدُ العالِم الذي يُلقي محاضرةً في المسجد وأمامَه طالبٌ واحدٌ تكرَّر عدَّةَ مرَّاتٍ في الماضي دون أن ترصُدَه آلاتُ التصوير، وقدَّر اللهُ لي أن أكونَ شاهدًا وحاضرًا في محاضرةٍ لأحَدِ أكابِر العُلماءِ قبل نحو عشرين سنةٍ ووقعَ ذلك أمامي بالفعل!

لم أكن أنوي الجلوسَ ولكنّي جلستُ علىٰ استحياءٍ حيثُ لم يبقَ إلا أنا وشخصٌ آخر، فلو قامَ الآخرُ بعدَ خروجي فسيبقىٰ الشيخُ يُحاضِرُ في الملائكةِ وصالحي الجانّ!!

لا أريدُ هنا أن أعلّقَ علىٰ كلّ دلالاتِ المشهدِ وهي كثيرة:

- زهدُ طلابِ العلم وضعفُ الهمّةِ في زماننا.
- الحاجَةُ إلىٰ تجديد الخطاب التدريسي.
- التقصيرُ في الجانب الإعلانيّ في الحثّ علىٰ المحافل التعليمية والدعوية.... الخ.

لن أتكلَّمَ عن شيءٍ من ذلك بل سألفِتُ الانتباهَ إلىٰ أجمَلِ وأروَعِ ما في المشهد، والذي أبهَرَني حقًا.

لقد كنتُ أتوقَّعُ من الشيخ أن يختصرَ كلامَه ويُنهي درسَه علىٰ عُجالة، فوجودُ اثنين فقط من المستمعين في مسجدٍ طويلٍ وعريضٍ لا يستحقُّ كثيرًا من البذلِ والجُهد.

لقد كانت المفاجأةُ أنَّهُ واصلَ حديثَهُ من بعد المغرب إلىٰ أذان العشاءِ بنَبرَةٍ واحدةٍ وصوتٍ ثابتٍ، وبالتفاعل ذاته الذي نعهدُه منه، بلا تلكّؤٍ أو تثاقُل، فو الله لكأنَّ أمامَهُ مئاتِ الأشخاص!!

لقد كان وقعُ الدرس في نفسي بليغًا، لم أنتفع بمادَّةِ المحاضرةِ عُشرَ معشارِ ذلك الدرس التربويّ الذي تركَ بصمتَهُ في وجداني.

ما الذي جعلهُ ياترىٰ يفعلُ ذلك وبدون تكلُّف؟!

لو كنتُ مكانه لم أفعلْ قطعًا لأنّي سأشعُرُ بالإهانةِ أن لا يجلس في حلقتي العلمية العشرات، وسأسوّغُ لنفسي أنَّهم لا يُقدّرون العلمَ والعلماءَ ولا يستَحقُّون هذا العلم الذي ينبغي أن يُصانَ عنهم!!

لقد رأيتُ من المشايخ ممَّن هو دونَ الشيخ بمراحل يشترطُ نِصابًا من الحضور مئتي طالبٍ كحدٍّ أدنىٰ لأيَّةِ محاضرةٍ يُدعىٰ إليها.

وبلغني عن مُرافِقِ أحدِ هؤلاء المشايخ أنه انسحَبَ من المسجد بالفعل واعتذرَ عن المحاضرةِ لأنَّ المُقدِّمَ - غفرَ اللهُ له - لم يُقدّم الشيخَ بالألقابِ التي تَجبُ في حقِّه.

مرةً أخرىٰ.. ما الذي جعلَ الشيخَ مُستَمتعًا بالتعليم، ولم يؤثّر في مستوىٰ أدائِه عددُ الحاضرين قلَّ أم كثُر؟!

قدَّرَ اللهُ لي أن أكونَ قريبَ عهدٍ بعبارَةٍ للجُنيد حيَّرتني، فكأنَّ هذا الموقفَ العمَليَّ جاءَ ليُبَرهِنَ لي ما لم أستوعِبهُ في النقلِ النَّظَريّ.

قال رحمه الله: (إنِّي منذُ ثلاثينَ سنَةً أخاطبُ اللهَ، والناسُ يظنُّونَ أنّي أخاطِبُهم)!!

مع أنّي لا أحبُّ الكلامَ المُغرِقَ في التصَوُّفِ والعباراتِ المُشكِلةَ حمَّالَةَ الأوجُه، والتي قد تكونُ موضع تُهمَة، غيرَ أنَّ هذه العبارةَ أدهشَتني، ونحَتَتْ في قلبي.

فهمتُ منها أنَّ العبدَ إذا بلَغَ رُتبَةَ الإحسانِ فهذا يعني أنَّهُ يعبُدُ اللهَ كأنَّهُ يراه!!

ومَن كان في حالٍ كأنَّهُ فيه يرَىٰ الخالقَ بعظَمَتهِ وجلالهِ هل ياتُرىٰ سيكونُ للمخلوقِ حينئذٍ في قلبه موضِعٌ ليلتَفِتَ إليه!!

أدركتُ عندَها أنَّ مَن بلغَ الإحسانَ حقًا قد لا يبصرُ بالفعلِ مَن أمامَهُ وإن كان ظاهِرُهُ كذلك.

إنَّهُ مقامُ الفَناءِ عن الخَلقِ وأنَّىٰ لِغِلاظِ الأكبادِ من أمثالي أن يُدرِكَه..!!

*****

مسلك (٢٢):

الرِّياءُ الخَفيُّ

سُئِلَ الحسنُ البصريُّ عن الرِّياءِ فقال: ذَمُّ الرَّجُلِ نفسَهُ في المَجلِس!!

هذا جوابُ عارفٍ بحيَلِ النَّفسِ وألاعيبِ الشيطان، فقد يتبادَرُ إلىٰ الذّهنِ أوَّلَ وهلَةٍ أنَّ مدحَ النَّفسِ وذِكرَ محاسِنِها أمامَ الناسِ أولىٰ بتوصيفِ الرِّياءِ مما ذكر.

والحقُّ ما قالَهُ رحمهُ الله، فإنَّ مَدْحَ المَرءِ نفسَهُ هو عَينُ ذَمِّها، وقد يُسقِطُهُ ذلك من أعيُنِ السامِعينَ لظهور تُهمَةِ العُجبِ وحُبِّ الذّكر من حالِهِ، فصارَتْ تلكَ الصورةُ مفضوحةً مكشوفَةً، وانقَلبَتْ حينَئذٍ صورَةُ مَدح النَّفسِ إلىٰ قالَبِ الذَّمِّ، فيُقالُ: ما أتقاهُ وما أعظَمَ نُكرانِهِ لذاتِهِ ومحاسبَتِهِ لنَفسِه!!

لكِن.. ذَمُّ المَرءِ نفسَهُ قد يُستَحسَنُ بضَوابِط:

• أولًا: أن يكونَ قصدُهُ من ذلكَ كَسرَ زهو النفسِ عندَما يَرىٰ فيها استعلاءً وانتِفاخًا فيَرُدَّها إلىٰ حدّ الاعتِدالِ، وهذا ما فعَلَهُ الفاروقُ مرّاتٍ بعدَ توَلّيهِ الخِلافَةِ.

• ثانيًا: أن يفعلَ ذلك عندَما يَرىٰ ظَنَّ الناسِ به فوقَ ما يستَحِقُّ فيَرُدَّهم إلىٰ حدِّ الاعتِدالِ، فهو لا يرضىٰ أن يُذكَرَ بما ليسَ فيه ويكرَهُ أن يلبَسَ ثَوبَي زورٍ بتَشَبُّعِهِ بما لم يُعطَ.

• ثالثًا: أن لا يُبالغَ في ذَمِّ نفسِهِ وذِكرِ عُيوبِها إلىٰ دَرَجَةِ الفضيحَةِ وهتكِ العِرضِ وقد ستَرَهُ الله.

• رابعًا: أن يُراقِبَ نيَّتَهُ ويتَفَحَّصَ قَلبَهُ فلَعَلَّهُ أرادَ مَدْحَ نفسِهِ بذَمِّها!!

وأبعَدُ الناسِ عن الرّياءِ أبعَدُهُم عن مُشاهَدَةِ الخَلقِ، فقد قَنَعَتْ نفسُهُ بمُشاهَدَةِ الخالِقِ جَلَّ جلالُهُ، فاستَغنَتْ بِنَظَرِهِ عن نَظَرِ مَن سِواهُ فلم تلتَفِتْ إلىٰ الخَلقِ واستوىٰ عندَها المَدْحُ والذَّمُّ.

*****

مسلك (٢٣):

قبلَ التحَصْرُم

الحُصرُمُ هو العِنَبُ في مرحَلةِ ما قبلَ النُّضج.. والزبيبُ هو العِنَبُ في مرحَلةِ ما بعدَ النُّضج.

فكيفَ يُمكِنُ لحُبَيباتٍ ضَعيفاتٍ بالكادِ تتشبَّثُ ببَعضِها لتكونَ مَشروعًا مُحتملًا لِلحَصرَمَةِ أن تكونَ في يومٍ واحدٍ زبيبًا حُلوًا ناضِجًا، دونَ أن تَمُرَّ بِمراحِلَ تُقاسي فيها الحموضَةَ والمرارة!!

هذا مَثَلٌ عربيٌّ يُطلَقُ علىٰ ظاهِرَةِ القَفزِ علىٰ المَراحِلِ.. أو بعِبارةٍ أوضَحَ: التَصَدُّرُ قبلَ التأهُّلِ، وهي ظاهِرَةٌ مَرَضِيَّةٌ ولا شكَّ، لها أسبابُها وأعراضُها المُختَلِفَة.

من أعراضِها الظاهِرةِ مَثَلًا: حُبُّ الشُهرَةِ وانتِشارِ الصيتِ، ومُنازَعَةِ الكِبارِ والاستِدراكِ عليهم، والحِرصِ علىٰ الألقابِ، والتشَدُّقِ والتقعُّرُ في الكلام، وحِفظِ غرائبِ المَسائِل، والتصَدُّرُ للتدريسِ قبلَ التمَكُّنِ.

ذكرَ (أبو علي القالي) صاحبُ كتاب (الأمالي) في اللغة أنَّ شَيخَهُ رآهُ وقد سَوَّلَتْ لهُ نفسُهُ الجلوسَ للتدريسِ في حلَقَةٍ جَمَعَ فيها بعضَ التلاميذ قبلَ أن يُجيزَهُ فزَجَرَهُ قائِلًا له كلِمَتَهُ المشهورة:

ياهذا.. تزَبَّبتَ قبلَ أن تتَحصرَمَ.. قُمْ من هنا ياكَيْتَ وَكَيْتَ..

قال: ورَماني بنَعلِهِ، فعَدوتُ هاربًا لا ألوي علىٰ شيء!!

هذهِ الحادِثَةُ تَقفِزُ إلىٰ ذاكِرتي كلَّما رأيتُ شابًّا في مُقتبَلِ العُمرِ ولم يشتدَّ

عودُهُ بعدُ، قد غرَّتهُ نفسُهُ ببعضِ قِراءاتٍ وبعضِ محفوظاتٍ فاغترَّ، وجرَّهُ إلىٰ الصدارَةِ بعضُ صِغارِ المدَّاحينَ فانجَرَّ، فمثَلُهُ كمَثَلِ من تدَكترَ قبلَ أن يتَمَسْتَرَ!!

أو قُلْ تدَكترَ قبلَ أن يتبَكْلَرَ!!

*****

مسلك (٢٤):

التواضع الخفي

عامَّةُ علماء السلوكِ عندما يتكلمون عن خُلُق التواضُع يُعرّفونه بتعريفاتٍ تكادُ تتَّفقُ علىٰ معنىٰ: (أن يضَعَ المرءُ نفسه...) ثُمَّ تختلفُ عباراتُهم بعد ذلك لتفيدَ في النهاية معاني متقاربة.

لكن عندما تقفُ عند تعريفِ الإمام ابنِ المبارك تجدُه يذهَبُ بك بعيدًا في الاتجاه المعاكس فيبدأ التعريفَ بقوله: (التواضعُ هو أن ترفعَ نفسَك...!!).

أمرٌ يثيرُ العجَبَ حقًا.. كيف يرفعُ العبدُ نفسَه ويكونُ متواضعًا؟! وأي نوعٍ من التواضع هذا؟

سوفَ أكملُ لك العبارةَ لتكتملَ عندك الصورةُ ويزولَ العجَب.

قال: (التواضع: هو أن ترفعَ نفسَك عند من هو فوقَكَ في أمور الدنيا حتىٰ تُشعرَه أنه ليس له عليك فضلٌ في دنياه).

(وأن تضعَ نفسَك عند من هو دونك في أمور الدنيا حتىٰ تُشعرَه أنه ليس لك عليه فضلٌ في دنياك).

إنَّه يريدُ أن يُنبّه معاشرَ الصالحين إلىٰ الفرقِ الخفيّ بين التواضع الحقيقيّ والتواضع الزائف، فالتواضعُ الحقيقيُّ لمن دونك في الدنيا ضابطُه أن يكون قصدُك إشعارَه أن لا فضل لك عليه، وهو صعبٌ علىٰ النفس.

وأما مع من هو فوقك في المنصب والجاه والمكانة وغير ذلك من أمور

الدنيا فالأمر مختلف تمامًا، فليس التواضع له هو كسرُ النفس وذلتها لأن الأمر هنا ملتبس، فلعلك توافقُ هوىٰ النفس في تملُّقِه ولين الجانب له طمَعًا فيما في يده، باسم التواضع وحسن الخلق، فيقعُ المرءُ في شراك حيل النفس من غير أن يشعُر.

وليس الجفاءُ والغلظةُ هي الخُلُق المطلوب هنا مع هذا الصنف، بل إظهارُ عِزَّة النفس واستغنائها عما في يده بالقدر الذي يشعُرُ معه أنه ليس أحسنَ منك حالًا في أمور دنياه، وهذا ضابطُ التفريق بين الكِبر والتعفُّف بإظهار الاستغناء عن الخلق.

إذن لنتواضع مع الأكابر بالطريقةِ (المباركية).

*****

مسلك (٢٥):

الدينُ بينَ نَشرِهِ ونَشرِه

لكي ينشُرَ الداعيةُ دينَ اللهِ بينَ الناسِ ويكونَ لدعوته أثرٌ إيجابيٌّ، يحتاجُ إلىٰ أمرَين أساسيَّين:

الأول: معرفةٌ جليَّةٌ بما يدعو إليه، وهي البصيرةُ التي تتولَّدُ من تزاوجِ العلم بالصدق.

الثاني: الأسلوبُ الدعويُّ الراقي الذي يتولَّدُ من تزاوج الرحمَةِ بالذَّوق.

الأول يُمثِّلُ جوهَرَ المادَّةِ المعروضَة، والثاني يُمثِّلُ الطبَقَ الذي تُقدَّمُ فيه للمدعوّ ليقبَلها، أو يرُدَّها.

قد ينجَحُ دعاةُ الباطِلِ في الترويج لباطلهم لِحُسنِ اختيارهِم الأطباقَ المنمَّقةَ الجاذِبةَ للزبائن.. وقد يفشَلُ دعاةُ الحقّ في تسويقِ ما لديهم من الخير والهدىٰ لأنَّهم يَعرضون بضاعَتَهم الرائعةَ بقوالبَ رديئةٍ، وأحيانًا منفّرَةٍ، بدَلَ أن تُقرّبَ البعيدَ تُبعدُ القريب.

ويخدَعون أنفسَهم بقولهم: الهدايةُ بيد الله.. إنك لا تهدي من أحببتَ!! حقًا.. وإنَّ منكم مُنَفِّرين، بدَلَ أن يقوموا بنَشر الدين يقومونَ بنَشره.

*****

مسلك (٢٦):

ضَبْطُ البُوصَلَة

في لحظةِ غفلةٍ، وغَمرةٍ من الإعجابِ وحُسنِ الثناء، قد يُصابُ الداعيةُ الصالحُ المتبوعُ ذو التأثير كغيرِهِ بداءٍ خَفي، أعراضُهُ التشخيصيةُ مراعاةُ تضخيم الذاتِ عند المعجَبين، أو إن كان ولا بدَّ فالحفاظُ علىٰ ما حقَّقهُ من المكاسِبِ في نفوسهم، فتكونُ إيقاعاتُهُ الدعويةُ متسقَةً مع ردود أفعالهم، وتدورُ في فلك استرضائهم.

قد تنحرفُ البوصلةُ بعدَ حين، ويتحوَّلُ الداعيةُ بالتدريج من دلالةِ العبادِ علىٰ ربِّ العباد، لتُصبحَ دلالتُهُ لهم علىٰ ذاته، بعد أن ذاقَ لذَّةَ الشرَفِ وحلاوةَ الجاهِ عندَ الخَلق!!

فبدَلَ أن يكونَ هو سبيلَ الناسِ للوصولِ إلىٰ اللهِ، جعَلَ اللهَ سبيلَ الناس للوصولِ إليه.

ولعلَّهُ يبلغُ من الغفلةِ درَجةً لن يكونَ فيها بتعلُّقِهِ بما ينتظرُهُ منهم بأقلَّ عبوديةٍ منهم بتعلُّقِهم بما ينتظرونَهُ منه.

قد تكونُ العبارَةُ قاسيةً بعضَ الشيء.. ولكن لن يستغربَها مَن فَقِهَ قولَ النبيِّ ﷺ: «**تعِسَ عبدُ الدينار، تعِسَ عبدُ الدّرهَم، تعسَ عبدُ الخميصَة...**».

إنَّ عبادَةَ هذهِ الماديّاتِ لم تكُن يومًا بالسجودِ والركوعِ والنُّسُك.. بل كانت بالمحبَّةِ وفرطِ التعلُّق.

لقد بلغَ غلامُ الملِكِ من عِلمِ الرَّاهِبِ ما مَكَّنهُ من إبراء الأكمَهِ والأبرَص، وخشيةَ أن يُغاليَ فيه الضُّعَفاءُ ويُفتَنَ به الجُهَلاءُ، كانَ يقولُ لكلِّ

مَن طلَبَ منهُ الشفاءَ: (إنّي لا أشفي أحدًا إنَّما يشفي اللهُ، فإن أنتَ آمنتَ باللهِ دعوتُ اللهَ فشفاكَ).

لم يكُن للغُلام الصالح أيُّ التِفاتَةٍ قلبٍ نحو الناسِ الذين أدهَشَهُم بكراماته، بل كانَ شغلُهُ الشاغِلُ كيفَ يدلُّهُم علىٰ الإيمانِ بربّهِم العظيم، ولو كلَّفَهُ ذلك حياتَه.

معادلةٌ صعبَةٌ.. حياةُ الداعيةِ مقابلَ إيمانِ الناس!!

العجيبُ أنَّها لم تُفرَض علىٰ الغلام، بل هو الذي اختارَها وفرضَها علىٰ العدو.

إنَّهُ لم يكُن يفكِّرُ بالشرَفِ العاجل والمجدِ الزائِل، بل كانَ يبحَثُ عن قُربِ سيّدِهِ ومولاهُ الذي به شرَفُ الأبَد.

إنَّه فوق.. هناك.. آتٍ للصادقينَ لا مَحالة..

يا طالبَ الشرَفِ والجاه ارفع رأسَك هناك.

واجعَلْ شعارَك:

(إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيّنٌ... وكلُّ الذي فوقَ التُرابِ تُرابُ)، وجَدِّد ضبطَ البوصَلَة.

*****

مسلك (٢٧):

خطرُ القَلَم

لا تكتُبْ لأنَّ أحَدًا ما ينتظِرُ منك أن تكتُب.. أو أنَّ أحدًا ما يوجِبُ عليك أن تكتُب.. أو لأنَّك ستنالُ مُكافأةً ماليةً أو معنَويَّةً علىٰ ما تكتُب.. أو انتِصارًا لنفسِك، وتحقيقًا لذاتك.

بل اكتُبْ عندما لا تجِدُ بُدًّا من الكتابة مما يُمليه عليك دينُك وإيمانُك ووِجدانُك وحقُّ من تحبُّ عليك، من الخير الذي تعتقدُ ألا يصلَهُم إلا من قِبَلِك، عندها فقط فاكتُب، واعلم أنَّك مسؤولٌ عن كلّ حرفٍ تخُطُّه يمينُك، وكلّ قصدٍ ينطوي عليه ضميرُك.

وتذكَّر دائمًا أيها الكاتبُ أنَّ القلمَ هو أداةُ بناءِ الوعي الكُبرىٰ (الذي علَّم بالقلم)، فلا تجعلْ أداةَ بناءِ الوعي مِعوَلَ هدمِه، أو هَدمِك.

*****

مسلك (٢٨):

موعظةُ مُعَمِّر

يزدادُ المرءُ بخبرة الآخرين وتجاربهم أعمارًا إلىٰ عمُره، ومما زاد في عمري ذلك اللقاءُ الودودُ الذي جمعني بشيخ عراقيٍّ كبيرٍ من أهالي (الشرقاط) من مواليد ألفٍ وثمانمئةٍ وتسعين، كان عمرُه وقتئذٍ مائةَ سنةٍ وسنة، عندما زارني في بيتي ببغدادَ مع حفيده الأربعيني.

بعد جلسةٍ مؤنسةٍ وادِعةٍ سألتُه مغتنمًا الفرصة: ما أعجبُ ما مرَّ بك ياعمُّ في عمرك المديد؟!

أطرقَ رأسَه هنيهةً ثم رفعه متنهدًا وقد لمعت عيناه من تحت حاجبين غليظين ألقيا بظلالهما علىٰ ملامح قرنٍ من عمُر البشر.

قال: لقد رأيتُ في حياتي عَجَبًا، ولكن أعجبها إليَّ ما سأقصُّه عليك، فاحفظ عني وخذ العبرةَ لك ولمن وراءك.

لقد كنا في الزمن الغابر نقتاتُ في بعض مواسم السنة علىٰ ما نقومُ بصيده، وكنتُ قد خرجتُ ذاتَ موسم إلىٰ الموضع الذي يغلب فيه ما يؤكل لحمُه من الصيد.. مرَّت بضعةُ أيام وأنا أتربَّصُ للصيد دون جدوىٰ، حتىٰ بدأ اليأسُ يدبُّ إلىٰ نفسي من الرزق في تلك الغدوة، وبينما أنا كذلك أراني الله عجبًا.

لقد رأيتُ ثعبانًا يراقبُ شيئًا ما ويتحرَّكُ نحوه ببطءٍ فتبعتُه حتىٰ رأيتُ أمامَه يربوعًا صغيرًا يأكلُ من خشاش الأرض، وسرعان ما صار بين فكيه اللذين بدأا بالاتساع شيئًا فشيئًا حتىٰ تمَّ ابتلاعُه بالكلية وأنا في مكمني أتابعُ

المشهد، وأرىٰ جسمَ اليربوع يتنقَّلُ في جوف الثعبان ببطء من حلقه إلىٰ وسطه، وعندما وصلَ اليربوعُ إلىٰ نحو نصفِ جسم الثعبان تحرَّكتُ نحوه، وأخرجتُ بندقيتي وصوبتُ فوهتَها نحو رأسه وأطلقتُ رصاصةً عاجلةً خرقته وتركته يتلوىٰ قليلًا حتىٰ سكن.

أقبلتُ عليه وأخرجتُ حربتي وطعنتُ في الموضع المنتفخ من جلده وشققته فخرجَ اليربوعُ وفيه رمَقٌ، لم يمُت بعد.. ركزتُ حربتي وجلستُ غيرَ بعيدٍ منه وأنا أتأملُ فيما صنعت، لا أدري ما الذي دفعني إلىٰ فعل ذلك!!

إني أرىٰ الحياةَ تعودُ إليه.. بدأ يمشي.. يحاولُ الركضَ لكنه يترنَّحُ يمنةً ويسرةً.. بدأ يُسرع.. ركضتُهُ مستقيمة.. ياألله.. لقد نجا.. لقد نجا!!

لم أكد أُنهي خاطرَتي وإذ بصقرٍ ينقَضُّ من عَل كالبرق، فينشبُ مخالبَه في جسد اليربوع ليطيرَ به بعيدًا، ويختفي عن مدىٰ بصري ويتركني في ذهولٍ من مشهدٍ سريع خاطفٍ مرَّ كلمح البصر.. ولكن شعرتُ حينئذٍ بأنَّ رسالةً ما قد بلغتني عن ربي مفادُها: (ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) نعم، إنَّ الله هو من يُعطي ويمنع، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع.

لقد أفدتُ من هذا الدرس ألا أهتم للرزق ما حييت.. وها أنا ذا ياولدي أمامَك قد جاوزتُ المئة، ومرَّ علىٰ تلك الحادثة قرابة السبعين سنةٍ وأنا اتقلَّبُ في رزقِ ربي، لا يضلُّ ربي ولا ينسىٰ.

الآن وقد مضىٰ علىٰ ذلك اللقاءِ نحو ربع قرنٍ من الزمان أكتبُ عن ذلك الدرس الذي أفدتُ منه فوائد جمَّة، في أعظم ما يحتاجُ فيه العبد أن يكون متوكلًا علىٰ الله، وهو الرزق والأجل! لقد وافىٰ الثعبانَ أجلُهُ في لحظةٍ ظفرَ

فيها برزقٍ وافرٍ كان يظنُّ أنَّه سوف يستمتعُ به، وإذا به رزقُ غيره سيخرجُه الله له من جوفه، وهو لا يعلم.

وأما اليربوع فقد أُكِلَ مرَّتين، وكانت المرةُ الثانيةُ في اللحظة التي ظنَّ فيها أنه نجا بالفعل، ولم يشعر أنَّ مستقرَّهُ سيكون في بطنٍ آخر بعد أن يُقطَّعَ إرَبا.

وأما أمرُ الطائر فهو الأعجبُ عندي، فقد أخرجَ اللهُ له رزقَهُ من حيثُ يبعدُ أن يكون، وسخَّر له المخلوقَ الأرقىٰ في الأرض ليقومَ بتلك المهمة.

يا ألله.. ما أبلغَهُ من درس، لعلَّ صاحبه فارقَ الحياة علىٰ الأغلب.. لكنَّ صورته لم تفارق مخيلتي، وكلما ضاقت أبوابُ الرزق أتذكَّرُ ذلك الشيخَ وأقول:

الزَمها.. فهي موعظةُ مُعمِّر.

*****

مسلك (٢٩):

سكِّيرٌ في المسجد

في ليلةٍ ماطرةٍ قضاها مع صاحبه في الحانَةِ خرج يتلمسُ طريقَهُ إلىٰ بيته وهو يترنّحُ في أزقَّةِ بغدادَ القديمة، في عصر ما قبل التلفاز، وقد فتحَت بيوتُ الله أبوابَها بعد النداء لصلاة الفجر.. توقَّفَ فجأةً أمامَ مسجدِ الحيّ القديم وقال لصاحبه: انتظرني حتىٰ أدخلَ دورةَ المياه في المسجد ثم نتابعُ طريقنا.

جلس صاحبُه منتظرًا خارجَ المسجد، ولكن مضىٰ وقتٌ أطولَ مما ينبغي والرجلُ في الداخل لم يخرج.

بدأ الخوفُ والقلقُ يتسللان إلىٰ نفسه، فاندفعَ نحو باحة المسجد الصغير الذي لم يدخله في حياته قطُّ ليرىٰ المفاجأة..!!

صاحبُه الثَّمِلُ متربّعٌ تحتَ النافذة قد جمعَ ركبتيه بيديه إلىٰ صدره، وأكبَّ رأسَه علىٰ يديه، وصوتٌ رخيمٌ عذبٌ يترنَّمُ بالقرآن وبأوزانِ المقام العراقيّ الحزين ينسابُ من النافذةِ إلىٰ باحة المسجد، حيثُ الصمتُ والسكونُ الذي لا يقطعُهُ إلا صوتُ زخاتِ المطر المتفرقة.

قال مندهشًا: فلان!! ماذا دهاك؟! يارجل؟! أتجلسُ هنا وتتركني أنتظرُ في الخارج كلَّ هذا الوقت؟!

فيرفعُ رأسَه وإذا بالدموع قد ملأت قسَمات وجهه، ويقولُ بصوتٍ خاشعٍ متكسّرٍ تخنقُه العبرة: تعالَ يامسكينُ واجلس إلىٰ جانبي واستمِع (ماذا أنزلَ اللهُ علىٰ نبيّه) والله لقد وقفَت كلُّ شعرةٍ في جلدي.

يا أللهُ.. لله درُّك أيها الإمامُ القارئُ الصادقُ، قد آتاك اللهُ مزمارًا من مزامير آل داوود فرُحتَ تغرّدُ به وتجتذبُ إليه قلوبَ العصاة، وتأسرُها لديك، فيكون إيقاعُ الآيات مترجَمَ المعاني في تذوّقِ السامعين، فتجدُ النفوسُ الحائرةُ ضالتها، وتقضي العيونُ اليَبسَةُ وطرَها، وتروي القلوبُ القاسيةُ ظمأها، فيحدوها الحنينُ إلىٰ المعاودَةِ المرَّةَ بعد المرَّة لتحيا وتنتشي بما تلذُّ من السماع.

لم أدرك ذلك الإمامَ الأعجوبة، الشيخَ الكفيفَ الحافظ البارعَ بالقراءات، ولكنَّ شيخي الذي حدَّثني بأخباره كان أحدَ روّادِ مسجده، وكان يقولُ لي: إنَّ هذا الرجُلَ قد أوتي مع جمال الصوت صفاءَ سريرةٍ فيعملُ هذا المزيجُ عمَلَه في السامعين، فما إن يفتتحَ الصلاةَ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، إلا وترىٰ المدامعَ قد انهمَرت، والعبرات قد سُكِبَت، ويأخذنا في رحلةٍ تحلقُ فيها الأرواحُ بعيدًا، نشعرُ معها حقًا أننا في جنّةِ الدنيا، وكانت لحظةُ التوقُّف عن التلاوةِ لحظةً يتمنّىٰ المصلون أن تتأخر وتتأخر.

قلتُ لشيخي: وماذا عن ذلك السكِّير؟!

قال: والله ما خرجَ من المسجد إلا بعد أن اغتسلَ وصلىٰ الفجر، وعاهدَ اللهَ علىٰ التوبة والاستقامة، وصارَ بعدَها من رواد المسجد.

إنَّه ليس التائبَ الوحيد، فهناك العشراتُ من العصاة اصطلحوا مع مولاهم بسبب تأثرهم بتلاوة الشيخ.

رحمك اللهُ ونوَّرَ قبرَكَ شيخي (الحاج نوري) فلطالما نوَّرتَني ببعض لطائفِ معرفتك، وأتحفتني ببعض محاسن تجاربك، وكان لذلك أثرٌ في تشكيلةِ ذاتي، وخواطرِ ذكرياتي.

أنا لم أسمَع صوتَ ذلك الإمام الصالح بأذني، لكنك استطعتَ بحسن نقلك وصدق وصفك أن تسمعَنيه بقلبي.. صدقًا، لقد سمعتُه، وهو يعيشُ بداخلي منذُ عرفتُك.

وداعًا شيخي.. ولعلَّ اللقاءَ بكم عن قريب

*****

مسلك (٣٠):

لا تقتَرِحْ.. بل انطَرِح

هل يُمكنُ للوليِّ أن يرىٰ أهوالَ الدنيا وعذاباتِها أمامَ عينَيه ويَضحَك؟!

قد يكونُ السؤالُ غريبًا لأوَّل وَهْلةٍ فلا تَعجَلْ واقرأ بعينَي قلبكَ لتمنَحَ روحَكَ جُرعَةً بلسَميَّةً شافيةً وافيَةً، في زمانٍ أوجاعُهُ خطيرةٌ وآلامُهُ مريرةٌ.

نعم.. قد تدمَعُ العينُ رحمةً ويضحَكُ القلبُ ثِقَةً ويقينًا، فقد ضَحِكَ الإمامُ السعيدُ (ابنُ جُبير) والسيفُ مُصلَتٌ فَوقَ عُنُقِه وطاغيَةُ العراقِ حينئذٍ يُتَقطَّعُ غيظًا ويصرَخُ: ما يُضحِكُك؟! فيُجيبُ بهدوءٍ وثِقَةٍ: عجِبتُ من جُرأتكَ علىٰ الله وحِلمِ الله عليك.

نعم من نَظَرَ إلىٰ الكونِ من حولِهِ فرآهُ مملكةً صاغِرةً خاضِعةً في قبضَةِ ملكٍ عظيم مُهيمِنٍ يُدَبّرُ أمرَهُ بحكمةٍ وإحكام، لا يُعجِزُهُ شيءٌ ولا يخفىٰ عليه شيءٌ، كلُّ من فيه له عبيد، ولا يَكونُ في مُلكه وسلطانِه إلا ما يُريد، سكَنَتْ نفسُهُ واطمأنَّ قلبُه وهنأَ عيشُهُ واستَعذَبَ مرارةَ الحياةِ، وتذوَّقَ الحياةَ بمذاقٍ عجيبٍ لا يعرفُهُ إلا من جَرَّبَه!!

ومَن أيقَنَ بأنَّ تدبيرَ اللهِ تعالىٰ له خيرٌ من تدبيرهِ لنفسِه، وأشهَدهُ اللهُ في نفسِه وفيما حولَه أفعالَهُ القاهِرَةَ وحكمتَهُ الباهرة، لم يجرؤ أن يُحدِّثَ نفسَهُ ولا يُمِرَّ علىٰ خاطِرهِ ما يُمْكِنُ أن يُشيرَ إلىٰ استدراكه علىٰ سيّدِه ومولاهُ أو اقتراحِهِ عليه ما يَظهَرُ له منه مصلحةٌ ما وكأنَّها خَفيَتْ عليه أو غفَلَ عنها!!

فالذي يُدبّرُ الأَمرَ من السماءِ إلىٰ الأرض بلا ريبٍ هو الأولىٰ بالتدبير؟! كيف يجوزُ للعبد العاجز الجاهل أن يقتَرِحَ علىٰ ربّه العالِم بكلّ شيءٍ القادِر علىٰ كلّ شيء، وهو أرحَمُ بالمؤمنين من أمَّهاتهم؟!

حتىٰ لو كان هذا الاقتراحُ منه حديثَ نَفسٍ فإنَّ مَن كمُلَتْ بالله معرفَتُهُ قد يَعُدُّ ذلك من سوءِ الأدبِ وضَعفِ التفويض.

حذارِ أن تَذهبَ بكَ الظنُونُ إلىٰ التواكُل والكسَل، وتركِ الأسبابِ وهجرِ العمَل، فتنقلبُ هذه الجرعَةُ إلىٰ جرعةِ تخديرٍ وتثبيط، بدلَ أن تكونَ جرعةَ تحفيزٍ وتثبيت!!

إن لم ينقَدِحْ لك المعنىٰ بعدُ فدونَكَ ذلك الترياقُ المُذهِلُ من ذلك الإمام الربانيّ العارفِ وقد قال كلمةً من أعجب المقولات، ولا أعلمُ مقولةً ظلَّت حاضرةً دائرةً في نفسي تعمَلُ عملَها فيها سنينَ طويلةً مثلَها.

ما الذي جعَلَ ياتُرىٰ قريحَةَ عمرَ بنِ عبد العزيز تجودُ بقوله: (لقد أصبحتُ ومالي من متاعِ الدنيا سرورٌ سوىٰ النظَرِ في مواضِعِ القَدَر).

لله درُّ تلك القريحَةِ ما أجوَدَها!!

إنَّه ينظرُ إلىٰ الأحداثِ مِن حولِه حُلوِها ومُرِّها فيلحَظُ قلبُه يدَ اللهِ وتدبيرَهُ فيها فيتذوَّقُها بمذاقٍ واحدٍ!!

فهو ينظُرُ إلىٰ لوحةِ الكونِ بألوانها المختلفة، حُلوِها ومُرِّها فيلحَظُ قلبُه يدَ اللهِ وتدبيرَهُ فيها فيتذوَّقُها بمذاقٍ واحدٍ يسرُّهُ ولا يضرُّهُ، يُرضيه ولا يُشقيه، بل يُمتِعُهُ ويُبهجُه المختلفَةِ نظرةً شاملةً يتخطَّىٰ بتأملاته فيها حدودَ الزمانِ والمكانِ ويتذوَّقُ منها الإبداعَ والجمالَ والكمالَ فلا يملكُ أن يمنعَ خفقاتِ قلبه أن تقولَ له:

يا عبدَ الله، انطَرِح.. انطَرِح.. ولا تقترِح

*****

مسلك (٣١):

كرامةُ أبي إسحاق

لولا أنه حدَّثني بها بنفسه وهو موضِعُ ثقةٍ عندي، لما كنتُ لأرويَ عنه واقعةً خارقةً للعادة قد يستغربُها السامعون، ولا تحتملها عقولُهم.

إبانَ الجهاد الأفغاني للروس وفي ليلةٍ غابَ فيها القمرُ بالكلية سمرتُ مع بعض إخواننا المجاهدين وتذاكرنا شيئًا مما ذكره الشيخُ المجاهد عبدُ الله عزام في كتابه: (آيات الرحمن في جهاد الأفغان) فهيَّج الحديثُ مكامنَ نفسِ أخي المجاهد أبي إسحاق علىٰ أن يقصَّ علينا ما وقع له بالفعل من كرامةٍ هي من أعجب ما سمعتُ في حياتي.

قال: خرجتُ في مهمَّةٍ مع أخوين قبل الغروب سرنا فيها علىٰ الأقدام إلىٰ قريةٍ تبعدُ عن قريتنا نحو ساعة، وبعد أن قطعنا ربعَ الطريق تقريبًا أصيبَ أحدُهما بلَغَمٍ أرضي بترَ ساقَه، حاولنا أن نحمله لنرجعَ به إلىٰ موضعنا الأول فلم نطق ذلك، فكان الرأيُ أن يرجع أحدنا ليأتي بالمسعفين لإجراء اللازم ويبقىٰ الآخرُ معه يحاول إيقاف النزيف.

كنتُ أنا من وقع عليه الاختيارُ فانطلقتُ مهرولًا في طريق العودة، ولكني لم أكن أحفظُ الطريقَ جيدًا، وكانت حقولُ الألغام تحيطُ بنا من كل جانب، وحلَّ الظلامُ المطبقُ بعد زوال آخر خيطٍ من الشفق، وانعدمت الرؤيةُ بالكلية، حتىٰ إنِّي تذكَّرتُ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾[النور:٤٠]، ولم يكن يُسمح لنا باستخدام الكشافات لأنها تدلُّ العدوَّ علىٰ موضعنا.

أبطأتُ في سيري وأنا اتلمسُ الطريقَ بصعوبةٍ بالغة، إلىٰ أن توقفتُ عند مُفترَق طرُق، لا أدري هل أسيرُ يمينًا أم شمالا!!

مضَت عدَّةُ دقائقَ وأنا في كربٍ عظيم، أخي ينزف، والوقت يمضي، وقد أسلُكُ الطريقَ الخطأ، ودقاتُ قلبي تتسارع، والعرقُ مني يتصبَّب، وغابَ عني كلُّ دعاءٍ ولم أذكر إلا آيةً واحدةً من كتاب الله لاحَت أمام عيني فصرتُ أردّدها وأبكي ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فعلتُ ذلك نحو عشر مرات، وإذا بي أرىٰ عجبًا!!

لقد لمعَتْ بقعةٌ ضوءٍ مستديرةٌ علىٰ الأرض أمامي بنحو ثلاث خطوات، وكأنَّ شخصًا ما يُسلطها من كشّافٍ من جهةٍ علويةٍ فوقَ رأسي تماما، سرتُ باتجاهها خطوةً فابتعدَت خطوة، وكلما اقتربتُ منها أكثرَ ابتعدَت بمقدار ما أقتربُ منها، وتبقىٰ المسافةُ بيننا ثابتة، حتىٰ شعرتُ بأنها تقودُني وتوجّهُني فكانت تذهبُ بي مع الطريق يمينًا فأذهبُ يمينًا، وتذهبُ شمالًا فأذهبُ شمالًا، وفي كل هذا لا ينقطع لساني عن تلاوة الآية، ولا دموعي عن الجريان.

وفجأةً اختفت البقعةُ العجيبةُ من الأرض لأرفعَ رأسي وأجدُني أمام بيوت القرية!!

أخبرتُ الأميرَ بخبر صاحبَيّ فأرسلَ معي بعضَ الإخوة، فيهم ممرضٌ عربي ودليلٌ أفغاني، ولم أكن حدَّثتُهم بما وقع لي.

وصلنا إلىٰ مفترق الطرق الذي ضللتُ عنده وتذكرتُ أني كنت أهم بسلوك الطريق الذاهب شمالا قبل أن تظهر لي هدايةُ ربي وتأخذَني في الطريق الآخر.

سألتُ الأخَ الأفغانيَّ عندها: إلىٰ أين يذهب هذا الطريق ياتُرىٰ؟ فقال

لي: هذا الموضعُ فيه أخطرُ حقل ألغام في المنطقة كلها، فقد زَرع فيه الروسُ عددًا كبيرًا من الألغام، قتلت عشَراتِ المجاهدين، ونسميه طريق الموت.

واصلنا طريقنا، وأسعفنا جريحنا، وأنجزنا مهمتنا، ومضت الأيام، وها أنا ذا أمامَكم سالمٌ معافىٰ، ولله الحمد والمنة، وأقسِم بالله أني ما زدتُ حرفًا علىٰ ما وقع، ولكم أن ترووا ذلك عني شريطةَ عدم ذكر اسمي.

عُذرًا أخي أبا إسحاق لأني ذكرت اسمك في مقالي هذا وخالفتُ وصيَّتك، لأني إنما فعلتُ ذلك لطول العهد بها وبك، ولا أدري إن كنتَ حيًا معنا اليوم علىٰ الأرض أم حيًا عند ربك!

ولعلك تعذرُني فإنَّ مصلحةَ التشخيص عندي هي الراجحة، لأنَّ مثل هذه الكرامة الموثَّقة ترفعُ من همَّةِ المجاهدين، وتزيدُ أهلَ الإيمان رسوخًا في إيمانهم، ويقنًا بمعية ربهم، ونصرته لأهل ولايته.

أخي السالك..

سأَترِكُ لذوقك استخلاصَ ما ينقدحُ في خاطرك من الدروس واللطائف، بما يفتحُ العزيز الوهاب، لكني أحبُّ ألا يفوتك منها؛ أنَّ أعظمَ فرَج يأتي مع أعظم ضيق، وأحرَج حال، وأصدق توكل، وأخلص دعاء، وأخبَت قلب.

وسَل الذي أنارَ الطريق لأبي إسحاق في ظلمة الليل البهيم، أن ينير ظلمات نفسك بنور معرفته وهدايته.

*****

مسلك (٣٢):

بعيني رأيتُ رجلَ الثلج

إن لم تكن رأيتَ رجلَ الثلج في حياتك فلعلك سمعت بالأخبار المتواترة عن أناس في بلاد الغرب سجَّلوا رؤيتهم له عيانًا يتجوَّلُ بين الثلوج بأوصافٍ متوافقة.

ومن الناس من لا يزالُ يعتقدُ أنَّه مجرَّدُ أوهامٍ وأنَّه من أساطير الأولين وخُرافاتهم ولا حقيقةَ له في الواقع المحسوس.

لكنِّي رأيتُ رجلَ الثلج بالفعل عند إقامتي في شمال ألبانيا وتحدَّثتُ إليه وعجبتُ من بساطته ودَماثةِ خُلقه.

إن كنتَ من أصحاب القلوب القويَّةِ فواصل القراءةَ وإلا فَدَع.

كان ذلك في شتاء عام ألفٍ وتسعمئةٍ وأربعةٍ وتسعين، وكنتُ أحاضِرُ في معهد العلوم الشرعية، الذي يبعد عن منزلي نحو مئتي متر، وكنتُ أجدُ حرَجًا ومشقةً في الوصول إليه، لأنَّ درجةَ الحرارةِ كانت تصِلُ أحيانًا إلىٰ عشرين درجةٍ تحت الصفر.

والثلوجُ لا تكادُ تغيبُ عن المدينة في فصل الشتاء، وترتفعُ لتبلغ المتر في بعض المناطق.

لم يكن جميعُ الطلاب من مدينة (بشكوبيا)؛ بل بعضهم كان يأتي من قرىً مجاورةٍ حرصًا منهم علىٰ طلب العلم، فقد كان المعهدَ الشرعيَّ الوحيدَ في المنطقة.

سألتُ أحدَهم يومًا وقد جاء مُتأخرًا عن الحصَّةِ الأولىٰ: أين تسكن؟

فكانت الإجابةُ صادمةً لي!!

كان بيتُه يبعُدُ مسيرةَ ساعةٍ مشيًا علىٰ الأقدام!!

لم أستطع أن أُخفي مشاعرَ الاستغراب، وظهرَت الدهشةُ علىٰ وجهي، فتبسَّم الطلابُ وقالوا لي: ياأستاذ، قريةُ هذا تُعَـدُّ قريبةً بالنسبة لقرية الطالب (ساي مير)، - وكان طالبًا خجولًا يجلسُ في المقعد الأماميِّ مباشرةً - نظرتُ إليه وقلتُ له: أخبرني كم يبعد منزلك أنت يا(ساي مير؟) فكان الجوابُ الصادمُ حقًا هذه المرَّة، والذي لا يكادُ يُصدَّق، خمسُ ساعاتٍ ياأستاذ.

سألته: في أيِّ ساعةٍ تخرُجُ من بيتك؟ ومتىٰ ترجعُ إليه؟

قال: أخرجُ في الساعة الثالثة قبل الفجر لأصِلَ في الثامنة، وبعد نهايةِ الدَّوام عند الواحدةِ أسيرُ حثيثًا حتىٰ أصلَ منزلي في السادسة مساءً!!

يا أللهُ.. عشرُ ساعاتٍ من السير علىٰ الأقدام يوميًا في الثلوج وبين الجبال بلا كللِ ولا استكانة، وبلا تذمُّر أو شكوىٰ، بل ولا حتىٰ تأخُّرٍ في يومٍ عن وقتِ الحِصَّةِ الأولىٰ، كلُّ هذا لأَجلِ طلبِ العلم الشرعيّ وحفظِ القرآن!!

أيُّ همَّةٍ كانت في قلب هذا الشابِّ المجاهدِ في طلب العلم؟!

وإذا كانـــت النفــوسُ كبــارًا تعِبَـــتْ في مرادهـــا الأجســـام

كانت المرةَ الأولىٰ التي أشعرُ فيها بالتضاؤلِ أمام طالبٍ من طلابي، فقد كنت أستغرق كلَّ يومٍ قبل خروجي من المنزل نحوًا من عشرين دقيقةٍ في

التجهيزات اللازمة لملاقاةِ البردِ الثلجيِّ القارسِ لأسيرَ مسافةَ مئتي متر فقط، وأنا أحسبُ أني أقومُ بإنجازٍ عظيمٍ لأجلِ ديني!!

كنتُ أوليه بعدها عنايةً خاصَّةً وأداعبُه قائلًا: لعلك أنت رجلُ الثلج الذي شاهده الناس فدوَّنوا شهاداتهم؟!

نعم، أنت درسٌ كبيرٌ في علوِّ الهمَّة، وقصَّتُك مُلهمَةٌ للمتقاعسين أمثالي، وتستحِقُّ أن تكتبَ في النَّوادر، شكرًا لك على إلهامك يارجلَ الثلج.

*****

مسلك (٣٣):

على مسلخ الطاغية[1]

رحمك اللهُ أيُّها العالمُ العَلَمُ، فقد علَّمتَ العلماءَ كيف يكون العملُ بالعلم، وكيف يكون العلماءُ من أمام العامَّةِ لا من ورائهم، وكيف يجودُ العالم بنفسه وهو يصدَعُ بكلمةِ الحقِّ عند سلاطين الجور والبغي..

رحمك اللهُ أيُّها العالمُ المجاهد، فقد علَّمتَنا أنَّ الفرق كبيرٌ بين التنظير والتطبيق، ففي الوقت الذي ذلَّت فيه رقابُ علماء السوء للطاغية، ولهجَت فيه ألسنتُهم بالتسبيح بحمده، وقفتَ كالطَّودِ الشامخ أمامَ جبروته، لم تهتزَّ منك شعرة، ولم ترعِبكَ منه زفرة، فصدعتَ بالحقِّ، وأمرتَ بالعدل، فأبرأتَ ذمَّتَك، وأعذَرْتَ إلىٰ ربِّك، لقد عظَّمتَ مولاك فصغُرَ في عينك كلُّ شيء دونه.

في الوقت الذي رضي الآخرون لأنفسهم بالدنيَّة، وباعوا دينَهم بدنيا طاغوتهم، فعظَّموه ومجَّدوه إلىٰ حدِّ الردَّة، حين قال قائلُهم:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار ... فاحكمْ فأنت الواحد القهارُ

فكأنَّما أنت النبيُّ محمَّدٌ ... وكأنَّما أنصارَك الأنصارُ

يا تُرىٰ مَن يكون هذا القزمُ الرافضي لكي يوصف بهذا الوصف!

إنَّه لم يكن سوىٰ حاكمٍ طائفيٍّ جائر، يدَّعي حبَّ آلِ البيت، وينتسبُ

(١) هذه المقالة كتبتها في أوائل الثورة السورية ضدَّ حاكمها النُصيريِّ الفاجر، حينما سقط رجال كنا نعدُّهم من أهل العلم والفضل.

إليهم كذبًا وزورًا، وسمَّىٰ دولتَه بالدولةِ الفاطمية، نسبةً إلىٰ فاطمة رضي الله عنها، ليخدعَ بذلك من تخطفُ الظواهرُ أبصارَهم، ويسحَرُ زيفُ اللفظ ألبابَهم، فكأنَّهُ لا عقلَ ولا بصَرَ!!

لقد عاث بنو عبيد القدَّاح في الأرض فسادًا، فقدِموا من بلاد المغرب إلىٰ القاهرة، ليقهَروا أهلها من أهل السنَّةِ ويسحقوهم باسم حبِّ آل البيت، فأعلنوا سبَّ الصحابة الكرام علىٰ المنابر، وأبطلوا التراويحَ وصلاةَ الضُّحىٰ، وأمروا بالقنوت في الظهر بالمساجد، وتحوَّلَت مصرُ في زمنِ الحاكم بأمر الله العُبيديِّ إلىٰ دولةٍ شيعية، حربٍ علىٰ السُنة وأهلها.

لم يُطق العالمُ المحدِّث الجليلُ أبو بكر النابلسيُّ أن يسكت مع الساكتين، ولا أن يُطأطئَ مع المطأطئين، إذن فما فائدةُ العلم الذي تعلَّمَه، وأين شرفُ حمل الحديث الذي تحمَّله، أوَليس أهلُ الحديث هم أهلُ النبيِّ وخاصتُه؟!

أهلُ الحديث همُ أهلُ النبيِّ وإنْ ... لم يصحَبوا نفْسَهُ أنفاسَه صحِبوا

ذلكم الإمامُ هو محمد بن أحمد بن سهل بن نصر، أبو بكر الرمليُّ الشهيدُ المعروف بابن النابلسي، كان عابدًا صالحًا زاهدًا، قوالًا بالحقِّ، وكان إمامًا في الحديث والفقه، صائمَ الدَّهر، كبيرَ الصَّولة عند الخاصَّة والعامة، كان من المحدِّثين الكبار، فقد حدَّث عن سعيد بن هاشم الطبراني، ومحمد بن الحسن بن قتيبة، ومحمد بن أحمد بن شيبان الرملي، كما حدّث عنه تمام الرازي، والدارقطني، وعبد الوهاب الميداني، وعلي بن عمر الحلبي، وغيرهم.

لما استولىٰ هؤلاءِ الرافضةُ علىٰ بلاد المسلمين، لم يهنأ للإمام عيشُ الصامتين، في ظلِّ نظام الفاسدين، فأطلقَ صرختَه المدويَّةَ الشجاعَةَ التي زلزَلَتْ أركانَ الطاغية، وأرعَدَتْ فرائِصَه، حيثُ قال:

(إذا كان مع الرجُلِ عشرَةُ أسهُم؛ وجبَ أن يرميَ في الرومِ سهمًا وفي بني عبيد تسعة!).

يا لهُ من موقف، و يالها من كلمة، لا يزالُ صداها يتردَّدُ في أرجاءِ الدنيا فيحدُثُ لها وقعٌ عظيم في قلوب الأبرار الأحرار، فماذا كان من الطاغوت بعدُ؟!

لقد أمرَ (زبانيَته) بإحضاره بين يديه، فأحضروه، فسأله قائلًا: بلغَنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرةُ أسهُم وجب أن يرميَ في الروم سهمًا وفينا تسعة!

فقال الإمام: (ما قلت هكذا)، ففرحَ عدوُّ الله، وظنَّ أنَّ الإمامَ سيرجعُ عن قوله، فقال له: فكيف قلت؟

قال الإمامُ بحزم وثبات: قلتُ: إذا كان معه عشرةٌ وجبَ أن يرميَكم بتسعةٍ، ويرميَ العاشرَ فيكم أيضًا، فسأله: ولم ذلك؟!

قال: لأنكم غيَّرتم دينَ الأمَّة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نورَ الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم.

فأمَرَ بإشهارِهِ في أوَّلِ يوم، ثم ضُرب في اليوم الثاني بالسياط ضربًا شديدًا مبرحًا، وفي اليوم الثالث؛ أمَرَ جزَّارًا يهوديًا بسلخه، فسُلِخَ من مِفرَقِ رأسِهِ حتىٰ بلغَ الوجه، فكان يذكُرُ اللهَ ويصبر، حتىٰ بلغَ العَضُدَ، فرحمهُ السلاَّخُ

وأخذتهُ رِقَّةٌ عليه، فوكزَ السِّكينَ في موضِعِ القلب، فقضىٰ عليه، وحُشي جلدُه تبنًا، وصُلب.

لم يكن الشيخ الشهيدُ يردِّدُ حينها سوىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

لقد كان قتلُ الإمام النابلسيِّ سنةَ ثلاثٍ وستينَ وثلاثمئةٍ من الهجرة، وذكرَ ابنُ الشعشاع المصريُّ أنَّه رآهُ في النوم بعدما قُتل، وهو في أحسَنِ هيئةٍ، قال: فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال:

حباني مالكي بدوام عزٍّ ... وواعدني بقربِ الانتصارِ

وقرَّبني وأدناني إليه ... وقال انعَم بعيشٍ في جواري

رحمك اللهُ أيُّها المحدِّثُ المجاهد، لقد أمَرَ الطاغوتُ بسلخ جلدِكَ لأنَّك أَبيْتَ أن تلبسَ جلدًا غيرَ جلدك، وأنِفتَ أن تكونَ مثلَ الحِرباءِ التي يتلوَّنُ جلدُها بحسب الحاجة، فجزىٰ اللهُ الشدائدَ كلَّ خير، يُعرَفُ بها العدوُّ من الصديق، والصادقُ من الكاذب، فيرفعُ اللهُ بالبلاءِ أقوامًا ويضعُ آخرين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

فيا لِله! كم فضحَت الشدائدُ من رِعديدٍ جَبانٍ، وكم هتكتْ من فِصامِ نَكِدٍ بين القولِ والعمل، لقد سقطَ أقوامٌ عِدادُهم من العلماء المكثرين في التأليف والتنظير، سارت بكتبهم الركبانُ، ونُشِّئَ علىٰ دراستها الوِلدانُ، تُرَسِّخُ عظائِمَ الأمور في الوجدان، كالولاءِ والنصرةِ لأولياءِ الرحمن،

والمستضعفين من أهل الإيمان، والبراءَةِ من أولياءِ الشيطان، فلما وقعَ البلاءُ والتمحيصُ، كانوا أوَّلَ المخالفين لأقوالهم، الكافرين بمبادئِهم، فتهاوىٰ في أيام قلائلَ مجدُهُم، وسقطتْ من أعين الأتباع هيبتُهم، وهتَفَ الناسُ في الميادين بلعنِهم، فيا للعَجَب! كيف استطاعَ هؤلاءِ المعمَّمون المطَربَشون أن يُسوِّغوا للطواغيتِ القَتَلَةِ إجرامَهُم، بل كفرَهُم!

وفي الختام نقول: وداعًا أيُّها الشيخُ المجاهد، ياشهيدَ كلمَةِ الحقِّ، وكأنِّي بك الآن تُحَلِّقُ في الجنان، تحتَ عرش الرحمن، وقد أبدلك اللهُ جلدًا خيرًا من جلدك، فيا لحُسنِ العاقبة، فواللهِ ما هي إلا غمضَةُ عَين وإذا بالأرواحِ في عِلِّيِّين، في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

كأني بك أيها العملاقُ تستقبلُ اليومَ طوابيرَ المسلوخين، الذين يَفِدون إليك كلَّ يومٍ وقد فعلَ بهم أَحفادُ قاتليك ما فعَلَهُ بك أجدادُهم!!

وكأنِّي بك وإيَّاهُم علىٰ سُرُرِ الذَّهَبِ مُتقابلين، يحكي بعضُكم لبعضٍ قِصَّةَ البطولةِ والرجولة، قصَّةَ النهايةِ الحميدة، وتلعنونَ علماءَ السوءِ وعُبَّادَ الطاغوت، ممَّن يَصدُقُ عليهم قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، إنَّ هؤلاءِ العلماءَ قد انسلخوا عن الآيات، فهم مسلوخون، ولكن شتَّانَ بين سَلْخٍ وسَلْخ!!

أين استقرَّتْ ياتُرىٰ أرواحُ هؤلاءِ الأذنابِ، الذين باعوا آخرتهم بدنيا طواغيتهم! فذهبوا وذهبت دنياهم وذهبت طواغيتُهم؟!

أين الذين التمسوا رضا المخلوقِ بسخط الخالق، وهم قد رجعوا إلىٰ الخالق وفارقوا المخلوق؟!

أمَّا شأنُ هؤلاء المسلوخين عن العلم والرجولة، في الدنيا، فقد رأيناهم مصنَّفين مع الأصاغر في مزبلة التاريخ، قد لعَنَتهم الأجيالُ تلوَ الاجيال، ولا كرامة.

وداعًا أيها الشيخُ النابلسي، وداعًا إلىٰ حين، لن نبكي عليك، فقد عرفتَ كيف يكونُ التوفيقُ لصنع خاتمةٍ سعيدةٍ، فلا أقولُ لك: نَم قريرَ العين، بل عِش قريرَ العين عند ربك، ولا نامتْ أعينُ الجُبناء.

*****

مسلك (٣٤):

الولادةُ الثانية

ولادةُ الإنسانِ الأولىٰ هي حينَ يخرُجُ من ظلمةِ بطنِ أمِّهِ إلىٰ هذه الدنيا، فيمشي في مناكبها، ويأكُلُ من أرزاقها، ويتنفَّسُ من هوائها.

وهذه محقَّقَةٌ لجميع الخلق.

أمَّا الشأنُ كلُّ الشأن ففي الولادة الثانية، وهي خروجُ النفس من ظُلمَةِ الجهل والهوىٰ إلىٰ نور الإيمان والهدىٰ، فيَعرفُ بها ربَّهُ، وغايةَ وجودِه، ويسيرُ في طريق رضوانه، وتستنشِقُ الرُّوحُ عبيرَ معرفته وتستلِذُّ حلاوةَ قُربه.

وهذه الولادةُ غيرُ متحقِّقةٍ إلا لمن اصطفاهُ مِن عباده.

قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]!!

قد تتعجَّل تلك الولادة وقد تتأجَّل، وقد تتصعَّبُ وقد تتسهَّل، وأحيانًا تتمُّ بعمليةٍ قيصرية، ولكن البليةَ الكبرىٰ والرزيةَ العظمىٰ أن يرحَلَ عن الدنيا ولم يولَد بعد.

فيا ألله.. كم من مولودٍ لم يولد!

*****

مسلك (٣٥):

آنَ لأَبي....أن يَمُدَّ رجليه

في مُقابَلةٍ معَ أبرَزِ شيوخِ الطُرُقِ الصوفيَّةِ في البَلَدِ يسألهُ المذيعُ: ما قولُكُم في حُكمِ التدخين؟ فيجيبُ مع ابتسامَةٍ خَجولَة: لا نستطيعُ أن نقولَ حَرام، لأنَّنا سنُكَفِّرُ بذلكَ خمسةً وتسعينَ بالمئَةِ من المسلمينَ هُم عِدادُ المدَخِّنين!!

وضَعتُ يدي علىٰ رأسي من هَولِ الجَهل!!

نتيجةٌ فاسدةٌ مبنيةٌ علىٰ مُقدِّمتينِ فاسدَتين.

هي مثالٌ واضحٌ لـمَن سأَلَني عن معنىٰ: (الإلزامُ بما لا يَلزَم).

ذكَّرَني هذا الزعيمُ بموقفٍ قديمٍ وقعَ لي مع شيخٍ وقورٍ ذي هَديٍ ظاهِرٍ ولحيَةٍ بيضاء، تَفرضُ عليك صورتُهُ الظاهرةُ أن تُذعِنَ له بالهَيبَة، وفوقَ ذلك هو أوَّلُ مَن يُبَكِّرُ إلىٰ المسجدِ والصفِّ الأوَّلِ، وهو مُلازِمٌ لكتابِ اللهِ لا يُفارِقُه.

كُنتُ أَغُضُّ طَرفي وصَوتي في حَضرَتِه.

دخلتُ المسجدَ يومًا ولم يكُنْ فيه سواهُ واستغربتُ لانفعالِهِ الشديدِ وارتفاعِ صوتِه!!

سألتُه بصوتٍ خافتٍ: ما الذي أغضبَكَ ياعَمُّ؟

قالَ: فلانٌ.. قد نهيتُهُ مِرارًا عن التسبيحِ بيدِهِ الشمالِ ولا يزالُ يفعلُ ذلك!

سألتُه: وما حُكمُ مَن يفعلُ ذلك عندكَ ياسيِّدي؟

قال: الكفرُ قَطعًا!!!

قلتُ: (وقد بدَتْ عليَّ آثارُ الصَّدْمَة):

بِمَ كَفَّرتَهُ أصلَحكَ اللهُ؟!

قالَ: بأنَّهُ يستَخدِمُ يدَهُ التي يَغسِلُ بها النجاسَةَ في ذكرِ الله!! أليسَ هذا كُفرًا؟!

عندَها وضَعتُ يدي علىٰ رأسي ولم أَنْبِسْ ببِنتِ شَفَةٍ خَشيَةَ أن أَرُدَّ عليهِ فيكفِّرَني!

وقلتُ في نفسي:

(آنَ لأبي طلحةَ أن يَمُدَّ رِجلَيه).

*****

مسلك (٣٦):

زُرغِبًّا تزدَد حُبًّا

كثيرةٌ هي المفاهيم التي تحتاج إلىٰ تصحيح، منها (أنَّ القُربَ يُنقصُ الحبَّ)، فحرص بعض الأصحاب علىٰ أن تكون زياراته لإخوانه وأحبابه متباعدةً إلىٰ حدِّ الجفاء، لاعتقاده أنَّ السُنَّة جاءت آمرةً بهذا.

ومما تناقله الناس أبٌ عن جدٍّ في مجتمعاتنا قولهم: (أبعِد تحلو) حتىٰ صار هذا المفهوم نمطًا في حياة بعض الصالحين!!

وللتصويب أقول:

إنَّ هذا الحديث لا يصحُّ عن النبي عليه الصلاة والسلام، بل الأحاديثُ النبوية مستفيضةٌ بالحثِّ علىٰ التواصل والتزاور، ونهت عن الهجر والتدابر.

ومن استدلَّ بالمأثور عن الأجداد، نقول له: إنَّ مما أُثِرَ عنهم كذلك قولهم:

(البُعد جفاء)، وقالوا: (البعيد عن العين بعيد عن القلب).

ومنهم من يستشهد بقول الشاعر:

غِبْ وزُرْ غِبًّا تزِدْ حُبًّا فمَن ... أكثرَ التَّردادَ أضناهُ الملل

وجوابي عن هذا:

لعلَّ الشاعرَ أراد الثقلاءَ الذين لا يرُحَّبُ بوجودهم ولا يُستأنسُ بحديثهم، فمثلُ هؤلاء يصدُقُ عليهم ما تقدَّم، بل من الزوار من هم حُمَّىٰ الأرواح وقذىٰ العيون، فحديثُهم سقم ولقياهم ألم.

أما أن ينسحب هذا على أهل الفضل والصلاح والتذاكر والتناصح، فهذا إبعاد في النجعة، وفي الإسقاط سقطَة.

وقد عارضتُ القصيدةَ المتقدِّمة بقولي:

صِلْ وزِدْ وصلًا تزِد حُبًّا فمَن ... أكثرَ الهِجرانَ فالأمرُ جَلل

وجفاءُ المرءِ في البُعدِ فهل ... حكمةٌ بمثلها جاء المثل

وافهمَنْ غِبًّا فزُرْ حبًّا تزِد ... واسبُرَنْ غورَ المعاني والعِلل

واطرُدِ العُرفَ إذا الفَهمُ بدا ... بخلاف الشرع تنجو من زلل

كم حديثٍ صحَّ في الندب إلى ... وصلِ إخوانٍ إذا الحبُّ اكتمل

وبهجرانٍ فكم نصٍّ أتى ... حذَّرَ الجافين صحَّ واتصل

فمرادُ البيت مقصورٌ على ... من إذا طلَّ فهَمٌّ قد أظلّ

ذاكم الزَّوارُ لا همَّ له غيرَ ... هدر الوقت، حلَّ وارتحل

إنه البطَّالُ لا أهلًا به ... أكثرَ الترداد من غير عمل

ثِقَلٌ في منطقٍ منخرمٍ ... وبطول المكث يزدادُ الثقَل

ولقا المحبوبِ يشفي علَّةً ... فهو ترياقٌ كما لعق العسل

ينتقي من كلِمٍ أطيَبَهُ ... صادقُ الوعد إذا قال فعل

فالزَمَنْ غِرْزَ أخٍ صاحِ تَفُزْ ... ناصحٍ مذكِّرٍ مَن قد غفل

إن تمادىٰ الخِلُّ في الذنب عفا ... وإذا ما وقع الهجرُ وصَل

مسلك (٣٧):

الثقةُ بالنفس.. تحرير المصطلح

لا مانعَ من الإفادة من علوم غير المسلمين وخبراتهم، لكنَّ الخطر يكمُن في الأخذ منهم دون تمحيص وتدقيق.

ومن المصطلحات المستوردة في دورات التنمية البشرية مصطلح (الثقة بالنفس)، الذي لم أجد له أصلًا في التراث الإسلامي لا لفظًا ولا معنىً، بل التأصيل العقديُّ الشرعيُّ علىٰ خلافه.

لقد بحثتُ عن لفظ: (الثقة) في القرآن والسنة فلم أجد إلا نكران الذات، والتبرؤ من الحول والقوة.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨]، ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

إنَّ استراتيجيةَ التدريب اليوم تقومُ علىٰ عملية نفخ الذات وتضخيم جانب الثقة بها علىٰ حساب ضمور الثقة بالله تعالىٰ وحسن التوكل عليه.

فما معنىٰ: (لا حول ولا قوة إلا بالله) التي هي كنز من كنوز الجنة؟

وما معنىٰ الدعاء: (يا حيُّ ياقيومُ برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين؟).

ثم هل تأمَّل القومُ في حديث: (..وأنَّكَ إن تكلني إلىٰ نفسي تكلني إلىٰ ضعفٍ وعَورةٍ وذنبٍ وخطيئةٍ، وإنِّي لا أثقُ إلَّا برحمتِك؟).

يا سلام.. هل رأيت؟

(لا أثقُ إلا برحمتك)، فأين موقعُ النفس هنا؟!

ومثلها ما جاء في الحديث القدسي: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي**».

إنَّه حسنُ الظنِّ بالله، ولا مكان لحُسنِ الظنِّ بالنفس.

لقد جعلوا أعظمَ أسباب النجاح الثقة بالقدرات الذاتية.

بينما نجدُ أعظمَ الناس نجاحًا في هذه الأمَّة ومنذ صدرها الأول يمارسون ويُعلّمون الناس نُكرانَ الذات وتأديبها ومعرفة قدرها وحجمها.

لقد تمادىٰ المدرِّبون في ترسيخ ما يسمُّونه: (الثقة بالنفس) إلىٰ درجة الوهم والغرور، بل خداع النفس، فيقولون: إذا كرَّر الفاشلُ في نفسه (أنا ناجح) فإنَّه سينجح!!

بينما رسَّخت فينا الشريعةُ أن نكرِّرَ عشرات المرَّات في اليوم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

نستعينُ علىٰ ماذا؟

علىٰ كلِّ شيءٍ بلا استثناء.

لقد اطلعتُ علىٰ عامَّةِ ما يستدلُّون به فوجدتُه بعيدَ المخرَج، مُتكلَّف التخريج، فلا يروي غليلًا ولا يشفي عليلا.

إنَّ مَن لا صلةَ له بالله من الملحدين وضعفاء الإيمان يحتاج إلىٰ رفع همَّته بتكريس مثل هذا المعنىٰ ليدفع عن نفسه العجزَ والفشل والسلبية، وهي المقصود الأكبر من العبارة عندهم.

وأما من عرف ربَّه بكماله وجلاله وجماله، وعرف نفسَه بجهله وعجزه وفقره، فقد حسُن توكُّله وتفويضُه، وكانت ثقته بتوفيق الله وعونه أقوىٰ في رفع همته وحصول مقصوده، وصدق تفاؤله من ذلك الذي فرَّ من العجز

بترك الأسباب إلىٰ نوع آخرَ من الخُذلان، وهو سبيل عجزٍ آخر يتمثلُ في الاعتماد علىٰ نفسه الضعيفة العاجزة الجاهلة.

يقولون: نحن نريد بالثقة بالنفس الإيمانَ بالقُدُرات الذاتية التي تجعل الواثقَ ثابتَ الجَنان راسخ الأركان.

فأقول: هو ذا عينُ الخذلان، فكم من خطيبٍ مفوَّهٍ وثِقَ بقدراته فتلعثم وارتُجَّ عليه؟

وكم من ذكيٍّ متفوِّقٍ في دراسته فشِلَ في الاختبار؟

وكم من تاجرٍ حاذقٍ خبيرٍ في فنون التسويق خسر في تجارته؟

وكم.. وكم.. وكم؟

إنَّ القضية الكبرىٰ هي عونُ الله وتوفيقه.

فالثقةُ بالقدرات الموهوبة من الله إنما هي ثقةٌ بمخلوق، فلا يجتمع مع الثقة بواهب القدرات وخالقها، فهو الذي إن شاء أن يسلبها سلبها في طرفة عين، فيصبح القادرُ عاجزًا في طرفة عين.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ فأوَّلُ ما يقضي عليه اجتهادُه

أيُّها المبارك:

دع عنك تأويلات المبطلين الذين يزخرفون القول، وابرأ من حولك وقوتك إلىٰ مولاك، فثَمَّ النجاحُ والتوفيق والسداد.

وكلما جاءتك وسوسةُ المدرِّبين فقل لنفسك الضعيفة:

وما توفيقي إلا بالله.

مسلك (٣٨):

اتقِ شرَّ مَن.....؟

مما يجبُ تقويمُه من أغلوطاتِ المفاهيم قولُهم: (اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه)، وهذا القول ليس من نصوص الوحي، وليس من مستحسَنات الحِكَم، بل هو منطقُ أصحاب الهواجس المرضية، والوساوس القهرية، الذين يظنون بالآخرين ظنَّ السَّوء.

إنَّ مفهوم العبارة من دواعي التثبيط عن الإحسان إلىٰ الآخرين، وقطع سبل المعروف معهم، لأنك كلما أحسنت إلىٰ أحد توقعت مقابلتَه لك بالشر، وردّ الإحسان بالإساءة، فأحجمت عن البذل.

وهذا الفهم خلافُ الفطرة والواقع والشرع.

أما الفطرةُ فهي أنَّ النفوس مجبولة علىٰ محبة من أحسن إليها.

وأما الواقع الملموس فيدلُّ علىٰ تعلق الناس عادةً بأهل الفضل والإحسان، والوفاء لهم، والاستحياء منهم، وما عدا ذلك يعدُّ استثناءً ولا عبرة به.

وأما الشرعُ وهو المقدَّم في الاعتبار، فقد دلت نصوصه علىٰ أنَّ الدفع بالتي هي أحسن يقلبُ العدوَّ وليًا حميمًا.

وفي الأدب:

أحسِن إلىٰ الناس تستعبد قلوبَهمُ ... فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وكن علىٰ الدهر معوانًا لذي أمل ... يرجو نَداك فإن الحرَّ معوانُ

وقد صاغ بعضُهم شعرًا قريبَ المعنىٰ مما فهمه القومُ، وهو من المشتهِر علىٰ الألسُن:

أعلـــمُه الرمـــايةَ كـــلَّ يـــوم فلمـــا اشـــتدَّ ساعـــدُه رمـــاني

وكـــم علـــمتُه نـــظمَ القـــوافي فلمـــا قـــال قافيـــةً هجـــاني

وإذا صدقَ وصفُ الشاعِر لواقعةٍ ما(وهي قتل ولده له) فإنما هو في حقِّ اللئام لا الكرام.

فطبعُ اللئيم الجحودُ والنكران، وطبع الكريم الشكرُ والعِرفان.

*****

مسلك (٣٩):

جَلدُ الذات.. محاكمةُ المصطلح

إنَّ مِن مُتلقَّفاتِ مجتمعاتنا العربية والإسلامية اليومَ من الثقافات الأجنبية الدخيلة مصطلحَ (جلد الذات)، فيُطلق بلا تمحيصٍ ولا تمييز، ويوظَّف في غير موضعه أحيانًا كثيرة.

فما أن يتفوَّه المرءُ بعبارةٍ يُفهَم منها لومُ نفسه أو معاتبتها علىٰ تقصير صدر منها إلا وتنهالُ عليه سهام النقد بغزارة، تتصدَّرُها نكارةٌ بعبارة: (يجلدُ ذاته).

وينسحب هذا علىٰ المراجعات الفكرية والمنهجية للأفراد والجماعات.

ولو بحثنا في أصل المصطلح لوجدنا أنه أُطلق أوَّل ما أطلق علىٰ طائفةٍ من النصارىٰ تقوم بممارسة الجلد بالفعل تعبيرًا عن الشعور بالخطيئة، فكأنهم يعاقبون أنفسهم بتعذيبها لتهدأ ضمائرُهم من التأنيب.

وقد كان البابا بولس السادس يُغلق البابَ علىٰ نفسه ويقوم بجلدها بالسوط أو السلسلة حتىٰ يسيل دمُه.

وتعذيبُ الجسد في الديانة الهندوسية هو أقصرُ طريق لتحرير الروح والوصول بها إلىٰ حالة الـ (نيرفانا) وهي ذروة النشوة الروحية العظمىٰ.

وقد أخذ متأخرو الشيعة ذلك عن النصارىٰ والهنود فصاروا يجلدون ظهورهم في مواكب العزاء الحسينية وهم يشعرون بنوع من ارتياح الضمير بالتخفيف من ثقل الخطيئة بخذلانهم الحسين وإسلامه للقتل.

فجلدُ الذات يعني بهذه الصور المقزّزة ممارسة الإنسان إذلال ذاته بذاته للتكفير عن خطايا قديمة اقترفها أو لم يقترفها.

إنَّ المجتمعَ الغربيَّ الذي صدَّر لنا هذه المصطلحات بتصوُّراته المشوَّهة ينفرُ من هذه الصورة بطبيعته المدنيَّة الحديثة، لكنَّهُ يذهب بعيدًا إلىٰ الطرف الآخر ليعتبر مجرَّد الشعور بالخطيئة عُقدةً نفسيةً مَرَضية يجب التحرُّر منها.

وبالفعل تجدُ الإنسان الغربيَّ العصريَّ فاقدًا للشعور بالخطيئة، ولم يعد يشعر بحاجة إلىٰ زيارة الكنيسة للحصول علىٰ صكوك الغفران.

بينما نجدُ في ديننا التوسط والاعتدال في هذا المفهوم، فالشعور بالخطيئة والاعتراف بها والخوف منها والبكاء عليها يُعدُّ من الفضائل.

لقد نشأنا وتربينا علىٰ كتب تزكية النفس لعلماء الأمة الربانيين، وتدارسنا منزلة (المحاسبة)، ووجدنا من مراتبها المعاتبة والمعاقبة.

ووعينا وصيةَ النبيِّ ﷺ لمن استنصَحَه: «**ابكِ علىٰ خطيئتك**».

وقرأنا عن الصدِّيق أنَّه كان يُمسِك بلسانه معاتبًا قائلًا: هذا الذي أوردني الموارد.

وقرأنا عن الفاروق توبيخه نفسه في خلواته، قائلًا: بخٍ بخٍ، والله لتتَّقينَّ اللهَ أو ليُعذبنَّك.

وهو صاحب العبارة الشهيرة: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا).

ورأينا الصدِّيقةَ بنتَ الصدِّيق تقول قبل موتها: ليتني كنت نسيًا منسيًا.

والعباراتُ عنهم في هذا الخصوص لا يسَعُها كُرَّاس.

نخلُصُ مما تقدَّم إلىٰ أنَّ هذا المصطلح يُحمَلُ علىٰ معنيين؛ مذموم ومحمود.

أما المذموم فله صور، منها:

أولا: أن يبلغ المرءُ في معاقبة نفسه حدَّ الإيذاء الجسدي والنفسي، فهو يهدم ولا يبني.

ثانيًا: أن يُعنِّفَ نفسه ويعاقبها علىٰ خطيئةٍ لم يكتسبها.

ثالثًا: أن يكون أثرُ ذلك عليه هو الشعور بالإحباط والفشل وأنه لا يصلُح لشيء، فيترك العمل.

وأما المحمود، فهو مراقبة النفس ومراجعتها وزجرُها، لكسب القدرة علىٰ التحكُّم بها وكبح جماحها، علىٰ سبيل التأديب والتربية، لتنقاد له بترك هواها لمراد خالقها.

والمحاسبةُ عندنا هي نظرُ المرء في ما هو عليه، ومقايسته بما يجب أن يكون عليه.

فإن كانت دون ما يريدها أن تكون، زجرها وعنَّفها وربما عاقبها ليُنهضها ويرقىٰ بها.

فإن كان تأديبُ النفس وردعُها جلدًا، فمرحبًا بالجلد.

إن كــان جلـدًا زَجـرُ ذاتِ مقصِّـرٍ ... فليشـــهَد الثقـــلانِ أنِّـــي جالـــد

مسلك (٤٠):

فَقْءُ الفُقاعات

لما كانت خواطر الإنسان من باطنه الذي لا يراه غيرُه استساغ الواحدُ منا أن يُطلقَ لخياله العنان، وسمح لفكره التجوُّلَ في مساحاتٍ من المحظور ولو كان جالسًا بين فضلاء الناس، لأنَّه مطمئنٌّ أنَّ أحدًا ما لا يطلعُ علىٰ سرّه.

لو افترضنا أنَّ هذه الخواطر والخيالات تظهرُ فوقَ رؤوس أصحابها علىٰ شكل فقاعةٍ هوائيةٍ تَعرضُ ما في داخل كلّ رأس - علىٰ نحو ما تعارف عليه الرسامون - فكيف سيكون ياترىٰ حالُ الواحدِ منا عندما تهاجمُه قبائحُ الخواطر، وكانت محلَّ نظر الجُلساء؟!

لا شكَّ أنَّه سيُدافعها بما أُوتي من قوة، خشيةَ الفضيحة علىٰ الملأ، ثمَّ السقوط من أعين الخلق.

تذكَّر أيُّها المبارك أنَّ الذي سترَ باطنَك عن أعيُنِ الناس لهو أقربُ إليك منهم، وسريرتُك عنده علانية، فلا تجعله أهون الناظرين إليك، وكافح فقاعاتك الهدَّامة، واجعل شعارك الدائم:

افقأها قبل أن تفقأك.

*****

مسلك (٤١):

فقهُ البكاء

لا تعصُر عينيك بل اعصُر قلبك، فمَخرِجُ الدمع القلبُ لا العين، وإذا انسدت غدَّةُ دمع قلبك لم تُسعِفْكَ غدَّةُ دمع عينك.

وذرفُ الدمع إمَّا بمقتضىٰ الطبع أو بمقتضىٰ الشرع.

أمَّا مقتضىٰ الطبع فيستوي فيه المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، بل الإنسانُ والبهيمة، ففي كلٍّ غرَزَ الله الرحمةَ والحنين، فربَّما بكت السباع، وربَّما خشعت الجمادات وبكت الأرض والسماوات.

وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّرُ منه الأنهار.

وأمَّا مقتضىٰ الشرع، فمدارُه علىٰ معرفة الرب العظيم بأسمائه وصفاته، بجلاله وكماله، ومعرفة النفس بعيوبها وفقرها وعظيم جنايتها، فإن لم تبكِ لخشيته بكيت لمحبته، وإلا بكيت فرحًا به وشوقًا للقائه، أو إن شئت لعظيم حلمه وجميل ستره، فإن لم تذرف لذلك كله فليكن لآثار رحمته التي وسعت كلَّ شيء.

فإن أبَت عينك فاعلم أنَّما رانَ علىٰ قلبك غشاءُ الغفلة، ورواسب الخطيئة، فأزله بمنقاش الندم واغسله بماء التوبة والضراعة، وافتح مغاليقَ قلبك بمفاتيح بصيرتك، وتأمَّل في رقة الباكين من حولك، من الذي قرَّبهم وأبعدك، فانطرح بين يديه، وتمرَّغ علىٰ عتبات بابه، واشك إليه قسوةَ قلبك وقَحطَ عينك وفسادَ طبعك، وقل يافتاحُ ياعليم.

فإن لم يفتَح لك مع كلِّ هذا - وهذا بعيد - فقد وجدتَ حينئذٍ ما يُبكيك آخرًا... إنَّه البكاءُ علىٰ نفسك.

مسلك (٤٢):

حوار مع كتابي

عرضتُ عليه الإسلامَ ذاتَ يوم، فقال: ولماذا أغيِّرُ ديني؟

قلت: لاحتمال أن يكونَ باطلا؟

قال: السؤالُ ذاتُه أردُّه عليك؟

قلت: حسَنًا، لديَّ حَلٌّ منصِف، ألستَ تؤمنُ بوجودِ الله العظيم خالِقِ هذا الكون؟

قال: بلىٰ.

قلت: نحن وإياكم علىٰ طرَفَي نقيض، فأحدُنا محِقٌّ والآخرُ مبطِلٌ ولا بُدَّ، فهَلُمَّ بنا ندعوهُ أنا وأنتَ بصدقٍ أن يهديَنا إلىٰ دينه الحقِّ الذي ارتضاهُ لعباده.

قال: أنصفت، سأفعل، ولكن افعل أنت أولًا.

قلت: أنا أفعلُ ذلك في كلِّ يومٍ أكثرَ من ثلاثين مرَّة، أدعو فيها ربي قائلا: اهدنا الصراط المستقيم.

فهل فعلتَ ذلك يومًا ما؟

قال: لا.

قلت: يارجل، أغمِض عينَيك، وتوجَّه إلىٰ ربِّكَ بصِدقٍ وتجَرُّدٍ ولو لمرَّةٍ واحدةٍ بطلبِ الهداية، وظنِّي بالله أنَّهُ لا يرُدُّ عبدًا استهداه.

إنَّك لن تخسَرَ شيئًا إن كنتَ علىٰ الحقِّ بل تزدادُ يقينًا.

نظرَ إليَّ ثمَّ قال: سأفعل.

ولم أرَهُ بعدَها، ولا أعلمُ ما حلَّ به، وهذا صنفٌ منهم.

والصنفُ الآخَرُ يأبىٰ أن يسألَ اللهَ الهدايةَ إلىٰ الحَقِّ أصلًا!! ولهذا دلالاتٌ كثيرة.

أخي الداعية..

هذا الحوارُ فيما أعتقدُ هو أقصَرُ وأسرعُ طريقٍ لهدايةِ مَن يؤمنُ بالله وهو علىٰ غير دين الإسلام، فإن لم يفعلْ فلستَ بحاجةٍ إلىٰ أن تُضيعَ كثيرًا مِن الوقتِ والجهدِ مع من هو أسيرٌ لهواهُ ولا يصدُقُ اللهَ في طلب الهداية، فينقلبُ الحوار إلىٰ جدَلٍ عقيم.

خلاصةُ الفكرة..

أنَّ الناسَ أمامَ أيِّ دعوةٍ جديدةٍ أحَدُ رجلين: إما أن يسمعَ وإما أن يُعرِض.

فإذا سمعَ.. إما أن يقتنعَ وإما أن لا يقتنع.

وإذا اقتنع إما أن يتَّبِعَ ما علِمَ من الحقِّ، وإما أن يتولَّىٰ عنه، فيكون لا محالةَ متَّبِعًا لهواه.

وهذا الدينُ الحقُّ قد أقام اللهُ تعالىٰ علىٰ صدقهِ من الدلائل والبراهين ما لا يدعُ شَكًّا لمتشَكِّك، فلم يبقَ إلا صدقُ التوجُّه.

وإذا كان للعبد عذرٌ ما من إدراك الحقيقة، فلا عذرَ له في أن لا يدعوَ اللهَ أن يوفِّقَهُ لإدراكها.

لقد أتىٰ اللهُ بسَلمان من بلادِ فارس لـمَّا علِمَ صدقَ توجُّهِهِ إليه، وختَمَ علىٰ قلبِ أبي طالبٍ لما رأىٰ إعراضَه عنه.

والله أعلم بالمهتدين.

مسلك (٤٣):

التصالح مع الذات

من أطلق هذا المصطلحَ يريد به بيانَ حالةٍ إيجابيةٍ عند أسوياء البشر تفيد وجود تطابُقٍ بين ظواهرهم وبواطنهم، علانيتهم وسرِّهم، وبخلافه تكون حالة الفصام داخل الشخصية غير السوية، فصاحبها متعدِّد الوجوه والأدوار، يجيد التمثيل والتزوير، وهو ذو طبيعةٍ مائعةٍ تتشكَّلُ بحسب القالَب الذي توضع فيه.

فهو صالحٌ إذا كان مع الصالحين، وفاسدٌ إذا كان مع الفاسدين، إن أحسنَ الناسُ أحسن، وإن أساؤوا أساء، وهكذا.. وهو غير مكترثٍ بتناقضه وازدواجيته.

والمسمىٰ الشرعي لمصطلح التصالح مع الذات عندنا أهل الإسلام هو الصدق، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].

والصدق يكون بالقول، و بالفعل، وبالنية، وبالعزم، وبالوفاء بالعزم، ويكون كذلك بمقامات الدين.

ما يهمُّنا في هذا المقام الثلاثةُ الأُوَل:

أما صدق القول فهو تطابق الخبر مع الواقع وضدُّه الكذب، وهذا ظاهر.

وأما صدق العمل فهو تطابق حال الباطن مع صورة الفعل الظاهر. وهو توحيد الطلب، يقابله التلوُّن والنفاق.

وأما صدق النية فهو الإخلاص، وهو توحيد المطلوب، يقابله الشرك والرياء.

وبين الصدق والإخلاص عمومٌ وخصوص، فكلُّ إخلاصٍ صدقٌ، وليس كلُّ صدقٍ إخلاصًا.

وبالجملة..

المتصالح مع ذاته إنسان مستقرُّ الحال، هادئ البال، مطمئنُّ النفس، قرير العين.

هو شخصٌ عرف الله بجلاله، وأدرك أنَّ كلَّ الذي فوق التراب تراب.

لا يعرف الازدواجية، فسِرُّهُ وعلانيته سواء.

مدح الناس له لا يغرُّه، وذمُّهم لا يضرُّه، وإذا امتدحه الناس بما ليس فيه انزعج لذلك، لأنَّه يعلم أنَّ الوصف كاذبٌ لا ينطبق عليه.

إذا تبيَّن له الحقُّ بخلاف ما هو عليه تقبَّل ذلك وانقاد له بصدرٍ منشرحٍ ونفسٍ طيِّبةٍ، فلا يُكابِر، ولا يُهاتِر.

الخلوةُ بالله تؤنسُه، وكثرةُ المخالطة توحِشُه.

وكمال صدق العبد أن لو قيل له ستُنشَرُ صحيفتُك علىٰ الناس الساعةَ لم يُبال، فليس لديه ما يُخفيه.. نعم تلك منازلُ المقرَّبين، ثم يأتي الأمثلُ فالأمثل.

وأقصىٰ ما يبلغه من الفصام أن يترك ما يأمر به، ويفعل ما ينهىٰ عنه.

بقي أن ننوِّهَ إلىٰ أنَّه لا يجوزُ أن يدخُلَ في المعنىٰ الإيجابيِّ مجاهرةُ العبد بخطيئته وفجورِه علىٰ أنَّه منسجِمٌ مع ذاته، فتلك رعونةٌ وقِلَّة حياءٍ، لا تليقُ بالأسوياء.

*****

مسلك (٤٤):

ال - لا - حزبية

الإنسان بطبعه يميلُ إلىٰ من وافقه وينفرُ عمَّن خالفه، ولا يمكنه دفعُ ذلك بحال، وعنه تنشأ التكتلات البشرية الكبيرة منها والصغيرة.

وكلما انتقلنا إلىٰ أطروحات فكريةٍ أعمَقَ وتفاصيل أدقَّ اتَّسَعَت مساحةُ الخلاف ونشأت دوائر تكتليةٌ أضيق.

فالجماعة الكبيرة التي تجمعها أصولٌ كليةٌ واحدة، إذا أغرقت في الجزئيات تباينت لديها وجهاتُ النظر ونشأ بين أبنائها الاختلاف، وهو بطبيعة الحال ظاهرةٌ صحيةٌ تغذِّي الفكرَ وتُـثري الموضوعَ محلَّ البحث، إذا ضُبطت بالمعايير العلمية والأدبية.

إنَّ وجودَ الجماعات الإسلامية في ميدان العمل الإسلامي بهذه الرؤية أمرٌ لا يمكن دفعُه بل يجب تقبُّله مع العمل علىٰ إنضاجه وترشيده.

أما قَولبةُ الأتباع وختمُهُم بطابع واحدٍ ففيه تعطيلُ للقُدُرات وحَجْـرٌ علىٰ العقول ومصادرةٌ للإبداع، وينتجُ عنه في الغالب ردودُ فعلٍ عكسيةٌ من التابع علىٰ المتبوع، ولو بعد حين.

إنَّ تشكُّلَ التيارات الإسلامية المختلفة في إطار الهدف الواحد والغاية النبيلة الواضحة، وهي دعوةُ الناس إلىٰ ما تضمَّنَه معنىٰ الشهادتين، وإخضاعُ المجتمع إلىٰ حُكم الله وسلطانه، هو اختلافٌ في الوسائل والأولويات والموازنات، ومبنىٰ ذلك علىٰ اختلافهم في المدارك والنظر، ثم تبايُنُهم في الطبائع والأمزجَةِ والميولِ الفِطريَّةِ والنفسية والتربوية.

وكلُّ ما تقدَّمَ يكشفُ لك عن حقيقة الدَّعوات التي تتجاهلُ هذه المسلَّمات وتريد أن تقفِزَ عليها، بدعوتها لتوحيد الأفكار الجزئية والتنوعيَّة.

فأعلنت عداءَها وحربَها علىٰ كل الجماعات الإسلامية الصالحة العاملة في الميدان، وأصبحت أداةَ تشتيتٍ وتمزيقٍ في الأمَّةِ وهي تريدُ جمعَها علىٰ المستحيل.

لقد صار ذمُّ الحزبية والتحذيرُ منها بالمطلق علىٰ ألسنةِ هذه الفئةِ هاجسًا لدعاتِهم لا يكادُ يخلو منه مقالٌ أو خطبةٌ أو درس، بمناسبةٍ وبدون مناسبة.

ومستندهم في ذلك عامَّةُ النصوص الآمرةِ بالاجتماع، الناهية عن التفرُّقِ والنزاع.

فأسقطوا هذه النصوصَ علىٰ جميع الاجتهادات بما في ذلك ما كان ظنيَّ الدِّلالة، وأسقطوها كذلك علىٰ اختلاف الوسائل وهو حتميٌّ.

ويلزمُهم من هذا تضليلُ جماهير الأمَّةِ من المدارس الفقهيَّةِ المختلفة، بل تضليلُ السلفِ الصالح بما فيهم الصحابةُ الكرام، بل يلزمُهم تضليلُ أنفسِهم وجماعتِهم بالضرورة، لأنَّهم كذلك حزبيون وإن حاربوا الحزبيةَ المقيتةَ عند مخالفيهم.

ووقعوا في كلِّ المحاذير التي نقموها من الآخرين.

لقد دعوا إلىٰ نبذ الجماعات الإسلامية ومحاربتها فانشغلوا بحربها عمَّن هو أولىٰ بتلك الحرب منها، من المنافقين في الداخل، وصنوف الأعداء في الخارج.

فانحاز إليهم من وافقَ منهجَهم، فكان ماذا؟

كلُّ من وافقَهم في نبذ الحزبيةِ قرَّبوه، وكلُّ مَن خالفهم فيها أقصَوه.

فكان ماذا؟

تكتُّلٌ جديدٌ يُحارِبُ كلَّ الجماعات والأحزاب الإسلامية، وشعارُهُ (لا حزبيةَ في الإسلام)، وصارَ له رموزٌ يتعصَّبُ لهم، ثمَّ مركزٌ علميٌّ يجمعُهُم ويعقِدون فيه دوراتهم التي ترسِّخُ فكرَهم ومنهجَهم.

فأصبَحَ ينطبقُ عليه في الحقيقة وصفُ الحزب وإن لم يشعروا، ويصدُقُ عليه في نظري تسميتُهُ بحزب (اللاحزب).

*****

مسلك (٤٥):

نتكاملُ أو نتآكل

وجود التباين الفطريِّ بين الناس في القُدُرات العقلية والبدنية أمرٌ مهم جدًا في إيجاد التوازن في حياتهم، ولو كانوا متساوين بدرجةٍ واحدةٍ لاختَلَّ التوازنُ واضطرَبَ المجتمع.

وميولُ الناس المختلفةُ هي التي تضع محدِّداتٍ لشخصيَّةِ الفَرد التي تدفعُهُ إلىٰ تبنِّي رؤيةٍ معيَّنَةٍ وجماعةٍ معيَّنةٍ قد تختلفُ في أولوياتها ونهجها عن الجماعات الأخرىٰ.

فتنوُّعُ الميول والطبائع يؤدِّي إلىٰ تنوُّعِ التخصُّصات، وهذه الأخيرةُ تؤدِّي إلىٰ التكامُل في سَدِّ حاجاتِ الأمَّة.

فهناك ميولٌ علميةٌ بحثية، وهناك ميولٌ دعويةٌ حركية، وأخرىٰ ميولٌ سياسيةٌ فكرية، وأخرىٰ عسكريةٌ جهادية، وأخرىٰ مسلكيةٌ تربوية، وهكذا.

وفي كلِّ نوعٍ أقسامٌ ودرجات.

وتنتظمُ هذه الميولُ في مشتركاتٍ تتولَّدُ عنها تياراتٌ واقعيةٌ في الميدان، وهو أمرٌ إيجابيٌّ صحيٌّ وُجِد في أفضل قَرنٍ وأصلحِ جيلٍ عرَفَه التاريخ.

فرفقُ أبي بكر، وحزمُ عمر، وكرمُ عثمان، وشجاعةُ عليّ، وعلمُ ابن مسعود، وقراءة أبيّ، وشاعريةُ حسان، وحنكةُ خالد في الحرب، ودهاءُ عمرو في السياسة...إلخ، كلها صفات متمِّمَةٌ لبعضها، يكمِّل بعضُهم بعضًا ولا يحطِمه أو يُسقطه، وينتظم المجتمع وكأنَّه لوحةٌ فسيفسائيةٌ بديعةٌ في تكاملِ أجزائها وانسجامِ ألوانها.

فبالرغم من اشتراكهم في أصل صفات الخير وأعمال البرِّ إلا أنَّ تفوقًا ما في وصفٍ ما كان يميِّزُ كلَّ فردٍ عن الآخرين، ويجعله مقدَّما وبارعًا في مجاله أكثر منهم.

عندما تغيب هذه الرؤية التكاملية يحلُّ محلها التعصب والشعور بالوحدوية والوصاية علىٰ الدين والدعوة، فلا يرىٰ المرءُ إلا نفسه وجماعته، وكلُّ من خرج عن فكر جماعته ونهجها فهو ضالٌّ هالك، يجبُ التصدِّي له والتحذير منه.

وأنا لا أتكلم هنا بالطبع عن الاختلاف الجوهري في بُنية المنهج وأصل الاعتقاد الموجود بالفعل عند الفِرق النارية الضالة التي خالفت السنة والجماعة، بل أريد اختلاف الميول والتخصُّصات الذي ينتجُ عنه اختلافُ نوع الأداء والسلوك الذي يصبُّ في اتجاهٍ واحدٍ وهو إقامةُ دين الله تعالىٰ في الناس، بالثوابت والقطعيات كحدٍّ أدنىٰ.

ويقابلُ فقهَ التنَّوع التكامُليِّ فقهُ استنساخ الشخصية أو (القَولبة)، وهو أن يكون جميعُ المسلمين نسخةً طِبقَ الأصل من شخصٍ مُعيَّن، وهو ممتنِعٌ شرعًا وعقلًا وعُرفًا، وهو خلافُ إرادةِ الله القدريَّةِ في تنوُّع البشر واختلافهم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨].

إنَّ الجانب المذموم في الحزبية المقيتة هو التعصُّبُ وقِصَرُ النَّظرِ وأحاديَّةُ الرؤية، والخروجُ من سَعَةِ الإسلام إلىٰ ضيق الجماعة، واعتقادُ الوصاية علىٰ الأمَّة، وهو ما يلزَمُ منه إسقاطُ الآخرين وازدراءُ جهودهم.

ومَكمَنُ الخَطر الأكبرُ أن يصِلَ الاعتدادُ بالنفس والجماعةِ إلىٰ درجة اعتقاد أنـهم هم الأمَّةُ وكلُّ مَن خالفَهم خارجٌ عنها.

وغيابُ الوَعي عند الجماعات الإسلامية بفقه التكامُل في الأمَّة أدَّىٰ إلىٰ هذا التشقُّق والتشرذم وذهاب الريح وسقوط الهيبة أمام الأعداءِ بالرغم من ارتفاع عديدها بين الأمم.

وبعبارةٍ أخرىٰ أقول:

هو التآكُلُ الذي يحلُّ محلَّ التكامُل عند غيابه ولا بُدَّ.

فإما أن نرضىٰ بالتكامل، أو نصبر علىٰ مُرِّ التآكل.

*****

مسلك (٤٦):

الشهوةُ وفسادُ التصوّر

يعجبُني توظيفُ القَصَص الرَّمزيةِ في تقريب المفاهيم وترسيخ الدروس.

من ذلك ما ذُكر عن قصَّةِ الكلب الذي لم يعجبه اسمُه وذهب إلىٰ ملك الغابة طالبًا منه تغييره إلىٰ اسمٍ آخرَ محبَّبٍ لديه.

وافقَ الأسدُ علىٰ منحه اسمًا جديدًا ولقبًا يرفعُ به شأنه بين الحيوانات، ولكن بشرط أن يجتاز اختبارًا يسيرًا.

أعطاه قطعةَ لحمٍ وكلَّفَه الاحتفاظَ بها ثلاثةَ أيامٍ دون أن يُصيبَ منها شيئًا.

فرح الكلبُ بهذا الشرط السهل وأخذ قطعةَ اللحم إلىٰ بيته، ووضعها أمام ناظره وجعل يُحدِّقُ إليها.

لم يفعل شيئًا سوىٰ النظر وهذا ليس مخلًا بالشرط!!

وفي اليوم الثاني اقترب منها مسافةً قصيرةً فصارت رائحةُ اللحم تتسلل إلىٰ جوفه فسال لها لعابُه، لكنه ظلَّ متماسكا ولم يخالف الشرط.

لقد أصبح في اليوم الثالث والصراع في داخله يحتدم، هو يرغب في الترقية إلىٰ اسمه الجديد، ونفسُه تنازعُه إلىٰ الاقتراب من قطعةِ اللحم أكثرَ ليملأَ أنفَهُ من رائحتها الشهية التي لم يعُد يقاومها، وهو بهذا ليس مخالفًا للشرط فسيرُدُّها دون المساس بها.

اقتربَ أكثرَ فأكثر.. الأنفُ يكادُ يلتصق باللحم.. نفَسٌ عميقٌ يسيلُ معه اللعابُ وتتفتَّقُ له الأمعاء.

وهو يقول في نفسه:

- لم أخالف الشرط.

- المدَّةُ أوشكت علىٰ النهاية.

- لعقةٌ واحدةٌ لا تضُرُّ.

- اللقَبُ الجميلُ والترقيةُ في انتظارك.

- اللعقُ ليس أكلًا، وعشراتٌ منه لا تُخلُّ بالشرط.

- اصبر قليلًا فالشمسُ أوشكَتْ علىٰ المغيب، وتُحقِّقُ غايتَك.

- حسنًا.. قضمَةٌ واحدةٌ فقط وسأعتذرُ عنها.

قضمةٌ ثانية.. ثالثة.. ورابعة.

اختفَت قطعةُ اللحم مع اختفاء قرص الشمس من الأفق.

قال الكلبُ وقد ملأ بطنه وفشل في الاختبار:

أنا لا أرىٰ ضيرًا في اسم (الكلب)؟

هو اسمٌ رائع، ولم أكن بحاجةٍ أصلا إلىٰ تغييره!!

والقناعةُ كنزٌ لا يفنىٰ!!

ذهبَتْ اللحمَةُ وظلَّ الكلبُ كلبًا.

أخي المبارك.

كم شهوةٍ أفسدت تصوُّرَ العاصي عن حرمة المعصية وضرر الذنب، وجعلته يرضىٰ بالدون، فبمباشرته لها وتكرار مقارفتها يعتادُها ويألفُها، ولم يعُد ينفر منها، ثم يستحسنها، ثم يدافع عنها ويبحث عن أية شواهد مهما

كانت ضعيفةً أو شاذةً أو ساقطة، ليسوِّغ بها فعله الآثم، وفي النهاية تنقلبُ المحرَّماتُ إلىٰ مباحاتٍ لا إشكال فيها.

حقًّا.. بكثرة التماسِّ يتبلَّدُ الإحساس.

*****

مسلك (٤٧):

الولادة الثالثة

يومًا ما في ساعةٍ ما سوف تنتبه لنفسك وإذا بك في عالم البرزخ، لم تعُد من أهل الدنيا، فالروح بين أقرانها من أرواح الموتىٰ الذين رحلوا قبلك، تعرفهم ويعرفونك.

هل أنا في حُلُم، أم كنتُ في حلم!!

كل من غادرونا مروا بتلك اللحظات وأحسوا بها، وإنا علىٰ أثرهم مغادرون، وبهم إن شاء الله لاحقون.

إنها ولادة أخرىٰ من نوع جديد، هي خروج الروح عن مقتضىٰ طبعها في عالمها الجسماني عند استشرافها المستقبل وكأنها قد وصلت إليه وحطت رحلها فيه.

أرأيت لو أنَّ إنسانًا ركب الطائرة وهو عائد إلىٰ وطنه وأهله من سفر، والطائرة علىٰ وشك الهبوط في المطار، ما هي المشاعر التي تتملكه في لحظات ما قبل الوصول؟!

إنه يعيش بخياله في أجواء الوصول والاستقبال ولقاء الأحباب، وربما ارتسمت علىٰ وجهه من آثار تلك المشاعر ابتسامةٌ عريضة، فيحسبُ الناظرُ أنَّ به خبَلا.

كلَّما لاحت لعين بصيرته لحظةُ اللقاء اختفت من أمام بصره صورةُ الأشياء، فإن خطفت عينَ بصره لن تخطفَ عينَ بصيرته.

كل ما في الصالات من المتاجر لا يغريه، وعن موعد لقاء الأحبة لا يُلهيه.

هذه الولادةُ الثالثةُ هي منشأ الزهد الأول.

إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

ولأجله كان في ذكر الموت صلاحُ القلب، وفي الغفلة عنه فسادُه وعطبُه.

*****

مسلك (٤٨):

يومُ العمُر

لم يكن ذلك الرجلُ يعلم أنَّ اليومَ الذي أماطَ فيه الشوكَ عن طريق الناس كان أفضلَ أيام حياته إذ غفَر اللهُ له به.

ولم تكن المرأةُ البغيُّ تتوقَّعُ أن يكونَ أسعدَ أيام حياتها ذلك اليوم الذي سقَت فيه كلبًا أرهقه العطشُ فشكر اللهُ صنيعَها وغفر لها.

إنَّ أسعدَ أيام يوسفَ عليه السلام كان ذلك اليوم الذي انتصرَ فيه علىٰ داعي الغريزة ووقف في وجه امرأة العزيز قائلًا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣]، فترقَّىٰ في معارج القُرب، وحظي بجائزة: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

الذين شهدوا بدرًا قيل لهم: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

ولما طأطأ طلحةُ ظهرَه للنبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ يومَ أُحُدٍ ليَطأَهُ بقدمه قال له: «**أوجَبَ طلحة**»، أي الجنة.

إنَّ العبد قد يُكتَبُ له عزُّ الدَّهر وسعادةُ الأبد بموقفٍ يُهيِّئُ اللهُ له فرصتَه، ويُقدِّرُ له أسبابَه، حينما يطلعُ علىٰ قلب عبده فيرىٰ فيه قيمةً إيمانيةً أو أخلاقيةً يحبُّها، فتشرقُ بها نفسُه وتنعكسُ علىٰ سلوكه بموقفٍ يمثِّلُ نقطةً مضيئةً في مسيرته في الحياة، وفي صحيفة أعماله إذا عُرضت عليه يومَ العرض.

فيا أيها المبارك.. أينَ يومُك؟

هل أدركته أم ليس بعد؟

توقَّعْ أن يكون بدمعةٍ في خلوة، أو مخالفةِ هوىً في رغبة، أو في سرور تدخلُه إلىٰ مسلم، أو مسح رأس يتيم، أو لثم قَدَم أمٍّ، أو قول كلمة حق، أو إغاثةِ ملهوف، أو نصرة مظلوم، أو كظم غيظ، أو إقالة عثرة، أو سَتر عورة، أو سدّ جوعة، وهكذا، فأنت لا تعلمُ من أين ستأتيك ساعةُ السَّعدِ.

لقد رُئيَ الشاعرُ أبو الحسن التّهاميُّ في المنام بعد موته، فقيلَ له: ما صنعَ اللهُ بك؟ فقال: غفر لي بقولي:

جاورتُ أعدائي وجاورَ ربَّه شتَّانَ بين جواره وجواري

وهو بيتٌ من قصيدةٍ طويلةٍ رثا فيها ولدَه.

أيها الموَفَّقُ..

ليكُن لك في كلِّ يوم جديد عملٌ علىٰ نيَّةٍ أن يكونَ عملَكَ المُنجي، فلعلَّهُ يكونُ يومَك الموعود.. يومَ العمر.

*****

مسلك (٤٩):

علامَةُ العلامَة

قد يحِقُّ لطالب العلم أن يُعجبَ بعلم شيخه وينبهرَ بشخصيته، فهذا لا يُستغرَبُ إذا ما اتَّسَعَ فارقُ بينِهما، وكلما كان الطالبُ أقلَّ حظًّا من العلم بَعُدت المسافةُ وازدادَ الانبهار، فإذا لم يكن له شيخٌ غيرُه فحينئذٍ يصدُقُ قوله فيه: لم تَرَ عيني مثلَه.

لكن ما لا يحقُّ للطالب هو أن يَفتَتنَ بشيخه أو يفتنَه أو يفتِنَ به بمغالاته في مدحِه وإطرائه لما في ذلك من خطرٍ على دين المادِحِ والممدوحِ والممدوحِ له.

ومما تتجلَّىٰ فيه صورةُ الغلوِّ إطلاقُ ألقاب التفخيم علىٰ من لا يستحقُّها كوصفه بـ(العلامة) أو (البحر) ونحو ذلك!!

فسماعُ العالم لمن يقدِّمُه للجمهور بين يدَي المحاضرة، وهو يصفُه بتلك الأوصاف المُفخَّمة، أو قراءتُه ذلك في تقدمةٍ مكتوبةٍ له في كتابٍ أو موقعٍ وسكوتُه دون ردٍّ أو دفعٍ لهوَ إقرارٌ منه علىٰ الاستحقاق، وعلامةٌ علىٰ الرضا والانبساط والمصادقة، وهذا لا يكونُ ممَّن له حظٌّ من علمٍ راسخٍ ونفسٍ زاكية، فالعُجْبُ والغرورُ من قواصِم الظهور.

ولعلَّ كثيرًا من هؤلاءِ المُعجَبِ بهم والمعجبين بأنفسهم يصدُقُ فيهم قولُ الشاعر:

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها … كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسد

وأما فتنةُ الطالب المغالي فهي في الرياء الخفيِّ، فهو بثنائه علىٰ شيخه وجعله وحيدَ قرنه وفريدَ عصره، إنما يشتهي أن يُعليَ شأنَ نفسه، ويُعرِّفَ الناسَ بفضلِ من يطلبُ عليهم العلم، إذ هو يطلبُ العلمَ علىٰ أعلم أهل زمانه!

فهو يُزكِّي نفسَه بتزكيةِ شيخِه، ويمدحُها بمدحه، وكأنه يقول: هذا شيخي فليُرني امرؤٌ شيخَه.

ويجدُرُ بي أن أشيرَ إلىٰ أنَّ لقبَ: (علاَّمة) قد امتُهِنَ في زماننا إلىٰ حدٍّ كبير، وصارَ الأصاغرُ يُطلقونه علىٰ مَن يُعجبون به من شيوخهم بلا ضوابط ولا معايير، مع أنَّ دلالتَه عند أسلافنا كانت علىٰ العالم المتفنِّن المتبحِّر في سائر العلوم الشرعية وأدواتها التي لا تقوم إلا بها، من ذهنٍ متَّقِد، وبديهةٍ حاضرة، وحافظة فيَّاضة، مع صلاحٍ في الدين والهَدي الظاهر.

فصيغةُ (فعَّال) للمبالغة، فإذا أُضيفَت إليها التاءُ دلَّت علىٰ بلوغِ الكمال المُمكنِ من الصفة التي تضمَّنها الاسم.

بقيَ أن أشيرَ إلىٰ أنَّ من أسبابِ تضخيمِ ألقابِ بعض الأشخاص هو التأثُّرُ بفكره ومنهجِه والرغبةُ في ترويجها والانتصار لها بجعل أصحابها رموزًا فذَّةً تستَحقُّ أن تقلَّدَ ويؤخَذَ عنها.

ولا يكادُ يخلو الغلوُّ بحالٍ من ذلةٍ للتابعِ وفتنةٍ للمتبوع، والنياتُ بحرٌ بلا ساحِل.

مسلك (٥٠):

لا تتلفَّت.. فأنت المقصود

مسيرةُ العبد نحو تقويم نفسه تبدأ بالخطوة الأولىٰ في التخلية، وهي معرفة آفات نفسه التي يحتاج أن يجتهد في إصلاحها.

ولا يوفَّق العبدُ إلىٰ رؤية عيوبه إلا إذا كانت نفسُه منه في موضع تهمة، فهو يتعوَّذ بالله من شرِّها صباحَ مساءَ، وهو يدركُ أنَّ منشأ الخطر من قِبَلها.

والمخذولُ من ضعُفَ بصرُه عن تلك الرؤية الذاتية الناقدة، وأمِن من غدَراتها وفَجَراتها.

وأسوأ من ذلك أن يضُمَّ إلىٰ العمىٰ عن نفسه قدرةً فائقةً في لحظ عيوب الآخرين، فهو يرىٰ القَذاةَ في أعينهم ولا يرىٰ الجِذْعَ في عين نفسه!!

ولمّا كان هذا حالَ أكثر الخلق احتاجَ العبدُ إلىٰ مرآةِ الناصحين والواعظين ليُبصِرَ بها حقيقةَ نفسه ماثلةً أمامَ عينيه.

ولكن؛ كيف سينتفعُ من المرآةِ مَن وقفَ أمامَها مُغمضَ العينين؟!

إنها صورةٌ مكرورةٌ للشخص الحاضر في خطبة الجمعة أو مجلس الوعظ وهو يكثِرُ التلفُّت يمنةً ويسرةً يفتِّشُ عن أصحابٍ يودُّ لو أنَّهم حاضرون معه يستمعون إلىٰ ذلك الكلام القيِّم فهم بأمَسِّ الحاجةِ إليه.

فإذا لاحَ له أحدُهم في المجلس فرحَ بوجوده فرَحًا عظيمًا، وحمِدَ الله أن لم يفته السماع، لأنَّ صاحبَه مُبتَلىٰ بتلك الآفة التي يعالجُها الخطيبُ أو الواعظ.

جميلٌ أن يهتمَّ المرءُ بشأن إخوانه ويُحبَّ الخيرَ والنفعَ لهم، غيرَ أنَّ من القُبح بمكانٍ أن يغفلَ عن حاجته هو إلىٰ الانتفاع بما يسمَع منشَغِلًا بغيره، نائيًا بنفسه عن التهمة والنقد، وقد يكونُ بهما أولىٰ وأحرىٰ.

أيها السالكُ المبارك.

إذا سمعتَ موعظةً أو قرأتَ نصيحةً فتعاملْ معها كأنك أنت وحدَكَ المقصودُ بها، وأنك أحوجُ الخلق إلىٰ الانتفاع بها، ولا تلتفتْ إلىٰ سواك، وإذا كان الواعِظُ مرآةً فافتح عينيك ودقِّق النظر.

*****

مسلك (٥١):

وبكى أُبَيّ

لو كنتَ مكانه وعلمتَ أنَّ الله ذكَرَك باسمك، ماذا سيكون شعورُك؟

هل ستبكي شوقًا.. أم حياءً.. أم فرحًا؟!

هو شعورٌ وجدانيٌّ عزيزٌ لا أظنُّ أحدًا يقدرُ علىٰ وصفه.

فمن أكونُ أنا حتىٰ يذكرَني الملكُ في عليائه، بعظمته وجلاله وكبريائه.

أيُّ مشاعر تفيضُ علىٰ قلب المخلوق الفقير وهو يحظىٰ بذكر خالقه له!!

هذا هو شعورُ أبيّ بن كعبٍ عندما أخبرَه رسولُ الله ﷺ أنَّ الله أمرَه أن يقرأ عليه سورة البيِّنة.

يستفسرُ ويدققُ في المسألة: يارسولَ الله، وسمّاني لك؟ فيقول: «**نعم**»، فيبكي أبيٌّ.

أتدرون ما الذي أبكاه؟

هو شعورُه بالعناية والاختصاص.

لسانُ حاله: اللهُ يعرفني باسمي ووصفي وخلجاتِ نفسي.

حقًا هو شعورٌ عظيمٌ بالفخر والشرف.

الله أكبر.. كيف لا؟

ألا يعلمُ من خلق وهو اللطيف الخبير.

بلىٰ.. لكنَّ تصوُّرَ العبد لصِغره وضآلته أمام عظمة ربه، وأنَّ العبادَ سواه كثيرٌ يحجبُ عنه ذلك الشعور.

لك أخي المباركُ أن تعيشَ تلك المشاعرَ وتسعدَ بها حينما تستدعي من ذاكرتك أنَّ لك عنايةً واختصاصًا من ربك، حسبك أن تنظر في المرآة لترىٰ الصورةَ التي اختارها الله لك، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[آل عمران:٦].

هل تعلم أنَّ لك بصمةً خاصةً في خِلقتك ليس لها نظيرٌ في الخلق؟!

بصمةُ بنانك.. عينك.. أذنك.. صوتك.. عرَقك.. الحِمض النووي، كلُّ شيء فيك يقول لك إنك فردٌ في الخلق ليس منك نسخةٌ مطابقةٌ في كلِّ الكون.

أنتَ إرادةُ الله.

فإن اختارك لهدايته وشرح صدرك لعبادته فقد حباك مزيدًا من العناية والاختصاص.

أتحبُّ أن يذكرك؟

اذكرْه.. ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة:١٥٢].

أتحبُّ أن تكلمه وتناجيه وتكون لك به خلوةٌ في أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار؟

استقبل قبلتَه مصليًا داعيًا تاليًا، فإنه قُبالةَ وجهك يسمعُك ويُدنيك ويجيبك، لا يزاحمُك عليه أحد.

تقرَّبْ إليه بالنوافل بعد الفرائض، يُحبَّكَ ويكُن سمعَكَ وبصرَكَ.

يااااه.

اسمح لي أن أهمسَ في أذنكَ بالحقيقة الغائبة:

(كلُّنا أُبيٌّ).

مسلك (٥٢):

فقْدُ الوجْد

خرجَ هائمًا علىٰ وجهه يبحثُ عن أثمنِ مفقودٍ وهو يرددُ: أين قلبي؟ من وجدَ قلبي؟

لم يعُد يشعُرُ بحلاوة القُرب المعهودة؟

ماذا دهىٰ ذلك القلبَ فما عادَ يحلِّقُ حولَ الكمالاتِ وهبط إلىٰ منزلةِ أهلِ الغفلات؟

سبحان الله.. وهل يردُّ قلبَ فاقدٍ سوىٰ الذي سوَّاه، وإلىٰ طريق الوصل هداه، ومن كأس الحبِّ سقاهُ فروَّاه؟!

ينتهي السيرُ بالجسد المُنهَك من طول السير والتطواف بين أزقةِ بغداد إلىٰ جدارٍ يُسنِدُ إليه ظهرَه، وقد ضاقت عليه الأرضُ بما رحُبَت، وتهيَّأت نفسُه الظمآىٰ لتلقّي الدرس الإلهي، كتلقي ابنِ آدم درس مواراةِ جثمانِ أخيه من الغراب.

تسوقه يدُ القدَر لرؤيةِ مشهدٍ عجيبٍ يَفهمُ منه رسالةً ربانيةً يعرفُها الأولياء من مليكهم الذي يتعاهدُهم برعايته الخاصة.

غلامٌ صغيرٌ تطردُه أمُّه من البيت وتغلقُ البابَ دونه، يلتفتُ يمينًا وشمالًا لا يدري أين يذهب!!

وكيف يقدرُ علىٰ البعد؟ وهل به جلَدٌ علىٰ مفارقة الحبِّ والحنان وقرَّةِ العين؟!

يرجعُ منطرحًا علىٰ عتبة الباب باكيًا شاكيًا... أماه، أتطرُدينني وقد علمتِ أن لا ملجأ لي سواك؟

من يؤويني إن طردتِني؟!

من يرعاني إن أبعدتِني؟!

وينطرح علىٰ عتَبةِ البابِ منكسرًا متذللًا، فينامُ وخدُّهُ الصغيرُ معفَّرٌ بالتراب، قد خطَّ فيه الدَّمعُ أثرًا لم يغِب عن ناظِرِ الأمِّ وهي ترقُبُ من النافذة فلذَةَ كبدِها.

ترحمُ الأمُّ ضعفَ صغيرها وفاقتَه وصدقَ التجائه فتفتحُ البابَ وترفعُه من الأرض وتضمُّه بذراعيها إلىٰ صدرها الحاني قائلةً: ياعزيزَ نفسي وقرَّةَ عيني، إنما هو بسببك، إنما ذلك لأجلك.

ينتهي المشهدُ وتُسدَلُ الستارة، وتصلُ الرسالةُ، فيصرخُ العبدُ الصالحُ مُنتشيًا: وجدتُ قلبي، وجدت قلبي.. لن أبرَحَ بابَه.

نعم أيُّها الفاقدُ قلبَه.. هذا سبيلُ الوصل إن كنتَ صادقا.. الانطراحُ علىٰ عتبةِ باب الملك، والبكاءُ بين يديه، وقد أريتَه من نفسكَ ذلًّا وافتقارا.

افزَع إليه وقل: ياوليَّ نعمتي وملاذي عند كربتي، لا إلهَ غيرُك ولا ربَّ سواك، ردَّ عليَّ قلبي.

فما قطعَك إلا ليَصِلك.. وما أبعدَك إلا ليُقرِّبك.. وما ضيَّق عليكَ إلا ليؤدِّبك.

فيا مَن فقَد الوجدَ، هذا وجدُ الفقد.

مسلك (٥٣):

الولادةُ الرابعة

كلُّ الناس يتخوَّفون منها ويجزعون لذكرها، تلك الصورةُ الرهيبةُ التي يرونها في غيرهم كلَّ يومٍ وهم يغادرون الدنيا إلىٰ المجهول، يفرُّون منها ويتعامَون عنها وهي قادمةٌ إليهم لا محالة.

هي ساعةُ نزعِ الروحِ من الجسدِ وتركِه في التراب للتحليق علوًّا في فضاءِ الملكوت حيث ينبغي لها أن تكون.

لقد انقضىٰ أمَدُ المُكثِ في الأرض وحانت لحظةُ ولادةِ الروح، ولا بدَّ للجسدِ من مكابدةِ المخاضِ لتخليصها من حبسها مخلفةً وراءها ذلك القالبَ الجسمانيَّ الثقيلَ الذي مكَّنها من الظهور في عالم الشهادة.

صدرَ الأمرُ العلويُّ وحضرَ فريقُ التوليد يرأسُه ملكٌ عظيمُ القدر، وظيفتُه قبضُ الأرواح وتسليمُها إلىٰ باقي الفريق ليحتفوا به علىٰ طريقتهم ويصعدوا به في موكبٍ مهيبٍ إلىٰ الملأ الأعلىٰ حيثُ كان منزلها الأول.

ظروفُ هذه الولادةِ وأحوالها تشبه إلىٰ حدٍّ كبيرٍ الولادةَ الأولىٰ حينما خرج المولودُ من ضيق رحِم الأمِّ إلىٰ سَعَةِ الدنيا.

هي لحظةُ الإفاقةِ من طيفٍ مَرَّ كسحابةِ صيفٍ خلَّف وراءَه أثرًا من ذكرياتٍ لصورٍ ووقائعَ بدَت وكأنها من زمنٍ بعيدٍ غابرٍ في أرض الأحلام والخيالات.

وداعًا أيها الجسدُ فقد كنتَ خيرَ مطيةٍ لي في مضمارِ المتسابقين إلىٰ

طاعة الله، ارقُد في التراب فإني عائدٌ إليك عمَّا قريبٍ لنواصِلَ رحلتنا معًا في عالَم الخلود.

حمدًا لله علىٰ السلامة، تمَّت الولادةُ بنجاح، أنت الآن في عالم البرزَخ. فرجٌ بعد كَرب، وراحةٌ بعد عناء.

والفاجرُ ذُهبَ به إلىٰ أمِّهِ الهاوية.

نجوتَ وربِّ الكعبة!!

أيُّها الأحباب.. دعوةُ حتىٰ يستريح.

*****

مسلك (٥٤):

نقطةُ الصفر

الدعوةُ إلىٰ تزكية النفس ليست دعوةً إلىٰ مثاليةٍ حالمةٍ غيرِ قابلةٍ للتطبيق، لكنَّها دعوةٌ إلىٰ الرقيِّ بالإنسان إلىٰ مراتب السموِّ الإنساني الممكن الذي يُحيل حياةَ البشر إلىٰ جنةٍ عاجلةٍ يطيبُ فيها العيش، ويلذُّ فيها الذوقُ الفكريُّ والنفسي، ويهتزُّ فيها القلبُ طربًا بدخول النعيم قبل النعيم.

حركةُ النفس وهي منطلقةٌ في رحلةِ السموِّ يجب أن تعيَ أنَّ التباطؤ فيها قادح، والتوقُّفَ فيها جارح، والتقهقرَ خطوةً نكوصٌ فادح.

ومنشأ تدرُّج العبد في الانزلاق من التباطؤ إلىٰ التقهقر هو التسويغُ للنفس بساعة غفلةٍ للترويح في شبهة، وأنَّ الاستئناف بعد ذلك ممكن.

فلا ينتبهُ إلىٰ أنَّ ما يكدِّرُ صفوَ العيش ساعةُ غفلةٍ مستحقَرَةٌ ربما أعادته إلىٰ نقطة الصفر، فيجدُ نفسه أمام الدرجة الأولىٰ من السلالم التي طالما جاهد نفسه لاجتياز عددٍ كبيرٍ منها بنجاح.

شعورٌ محبِطٌ حقًا أن تجدَ نفسَك عائدًا في أيِّ مُنجَزٍ من جديدٍ إلىٰ نقطة الانطلاق.

نداءٌ ثقيل.. حاوِل من جديد!!

لو أردتُ أن ألخِّصَ لك عمقَ الفكرة فلن أجدَ أروعَ من عبارةٍ وقفتُ عليها قديمًا لعالم ربانيٍّ جليل هو الحسنُ البصري، هذه العبارةُ خلعَت قلبيَ وتردَدَّ إيقاعُها في كياني عمُرًا، ائذن لها باختراق وعيك، والتجوُّلِ في مساحاتِ تأملاتك: (غفلةُ ساعةٍ تحبطُ مجاهدةَ سنة!!).

هي باختصار.. العودةُ إلىٰ نقطةِ الصفر.

مسلك (٥٥):

فرصةٌ ذهبية

كثيرًا ما يدبُّ اليأسُ إلىٰ النفوس عند المقايسة بين واقعها ومأمولها، وأهلُ الصدق تنتابهم من ذلك حالةٌ من الرهبة تؤدي إلىٰ الارتعاش والضعف عن القيام بالمهام.

مقلقٌ حقًا التفكيرُ بسجلات الماضي الكئيب، المحفوفة بجنايات الهوىٰ وبراثن الغفلات.

وإذا وافق ذلك سياطُ الوعظ الملهبة لكوامِن النفس اللوَّامة ربما شعر العبدُ بأن لا سبيل إلىٰ تصحيح المسار واستدراك العِثار، فقراءةُ مقالٍ من مثل (نقطة الصفر) قد يكون كفيلًا بأن يصل بالعبد إلىٰ تلك المشاعر السلبية المحبطة.

ألسنا بشرًا؟!

أليس كلُّ بني آدم خطاء؟!

أليس اللهُ غفورًا رحيمًا؟!

ماذا يفعل من قضىٰ عشرات السنين من عمُره تائهًا في ظلمات الجهل والهوىٰ؟!

هل إلىٰ خروج من سبيل؟!

هل من بارقة أمل تنعشُ الروحَ وتجمُّ الفؤاد وتبعث علىٰ الاستقامة؟!

كلُّها أسئلةٌ حقيقيةٌ ومشروعةٌ لا تنفكُّ عن خواطر أصحاب السوابق من الصالحين، ولأجل ذلك أقدِّم لى ولكم هذه الجرعةَ التفاؤلية النبوية التى تخرج العبد من عذابات هواجس الماضي، وتضعُه علىٰ محكِّ الصدق في طريق محوه واستبداله كأن لم يكن.

فرصةٌ ذهبيةٌ عظيمةٌ لا تقدَّرُ بثمنٍ، إن استطاع العبدُ أن يستثمرَها فتَحت له الآفاق، وانتشلته من الأعماق!!

كم مضىٰ من عمُرك؟

أربعون أو خمسون، قضيتَها بين أنياب الشرِّ ومخالب الهوىٰ؟

كم بقي من عمرك؟

هل تودُّ أن تعودَ بذنوبك هذه المرَّة إلىٰ نقطةِ الصفر وتتحرَّرَ من أسرها وشؤم مطاردتها؟

افتح قلبك إذن لوصية نبيك الكريم:

(مَن أحسَنَ فيما بقي غُفِرَ له ما مضىٰ، ومَن أساءَ فيما بقي أُخِذَ بما مضىٰ وما بقي)[٢].

ياسلام.. ما أروعَها من فرصة!!

يا كلَّ متنفِّسٍ للحياة، لم يبقَ لك بعد هذا عذرٌ في حمل أثقال الماضي، ولا ذريعةٌ إلىٰ وساوس البطالين، ثِبْ علىٰ داعي التثبيط، وانفض عن قلبك غبارَ القانطين وتسويفَ المتقاعسين، وانشط في قليلٍ باق، فعما قريبٍ يفرح العاملون، ويخسرُ المبطلون، ويستحسرُ المسوِّفون.

هي فرصتُك فخُذ أو دَع.

*****

---

(٢) رواه الطبراني في (المعجم الأوسط) (٧/ ٤٦) (٦٨٠٦)، وحسن إسناده المنذري في (الترغيب والترهيب) (٤/ ١٢٦)، والهيثمي في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٢٠٥)، وحسنه الألباني في (صحيح الترغيب) (٣١٥٦).

مسلك (٥٦):

بين الحياء والمروءة

الحياء: هو تركُ ما يستقبحه الناسُ خشيةَ السقوط من أعينهم، **والمروءة**: هي ترك ما تستقبحه أنت خشيةَ السقوط من عين نفسك.

*****

مسلك (٥٧):

قاعدة

التضييقُ علىٰ الناس فيما وسَّعَه الشَّرعُ كالتوسِعَةِ عليهم فيما ضيَّقَه الشرع.

*****

مسلك (٥٨):

العالِمُ سجينًا

عندما يعجزُ منطقُ القوَّةِ أمامَ قوَّةِ المنطق، لا يجِدُ الباطل إلا القيدَ والسوطَ لإسكاته، فيفوحُ عبيرُ الصبر المتزاوج باليقين، وتولدُ من رحِمِ المجاهدة إمامةُ الدين، وتتحوَّلُ كلماتُ التنظير إلىٰ نبراسٍ يُنيرُ دروبَ السالكين.

لقد سجَنَ الجلادونَ الأسدَ عندما صدعَ بالحقِّ علىٰ الملأ بأنَّ نكاحَ أميرهم (الخاقان) من عتيقته قبلَ الإبراءِ باطلٌ في حكم الشرع.

وليتك تعلم أين كان الحبسُ؟! في جُبٍّ مُظلمٍ تحتَ الأرض، ليتأدَّب سائرُ العلماءِ وليضبطوا ألسنتهم، ويُداهنوا الأمراء ولو علىٰ حساب دينهم ومرضاة ربهم.

لم يكن الإمامُ السرخسيُّ من صنفِ المستسلمين المحبَطين؛ بل كان إيجابيًا لدرجةٍ قلبَ فيها المحنَةَ منحَةً، والبلايا عطايا.

لقد أملىٰ علىٰ طلابه من محبسه في الجُبّ كتابه الشهير: (المبسوط) وهو في ثلاثين جزءًا، وهم يكتبون في قراطيسهم ما يمليه عليهم من غير مرجع، إلا من فتح الفتاح الوهاب.

لم تذهب السنواتُ الخمسةَ عشرَ التي قضاها تحت الأرض سُدىٰ، فقد جعل الله ثوابَها العاجلَ رفعةً ومنزلةً في قلوب الخلق، فلقَّبوه بـ (شمس الأئمة)، وكأنهُم يصرخون في وجه الخاقان: آمنّا بربّ السرخسيّ.

وأما مبسوطه بمجلداته العشر فلا تكاد تخلو منه مكتبةُ طالب علم، ولا بحثٌ فقهيٌّ من العَزو إليه. وأما الأميرُ.. فإلىٰ مزبلة التاريخ ذهبَ غير مأسوفٍ عليه مع الجلادِ والسجّان. وقريبًا سيكونُ المُلتقىٰ عندَ الديّان.

إلـىٰ ديّـان يـوم الـدّين نمضـي وعنـــد الله تجتمـــعُ الخصـــومُ

لقد أبكاني هذا الأسدُ عندَ خاتمةِ بعضِ الأبوابِ من كتابهِ وكان يذيّلُه بوصف حاله، فقد قال في المبسوط عند فراغه من شرح العبادات: (هذا آخرُ شرح العبادات بأوضح المعاني، وأوجز العبارات، أملاه المحبوسُ عن الجُمَعِ والجماعات).

وقال في آخر كتاب الطلاق:

(هذا آخرُ كتاب الطلاق المؤثر من المعاني الدقاق، أملاه المحبوس عن الانطلاق، المبتلىٰ بوحشة الفراق، مصليا علىٰ صاحب البراق).

وقال في آخر كتاب العتاق:

(انتهىٰ شرح العتاق من مسائل الخلاف والوفاق، أملاه المستقبل للمحن بالاعتناق، المحصور في طرق من الآفاق، حامدًا للمهيمن الرزاق، ومصليا علىٰ حبيب الخلاق، ومرتجىٰ إلىٰ لقائه بالأشواق وعلىٰ آله وصحبه خير الصحب والرفاق).

وقال في آخر شرح الإقرار:

(انتهىٰ شرحُ كتاب الإقرار المشتمِل من المعاني ما هو سرُّ الأسرار، وأملاه المحبوس في موضع الأشرار، مصليا علىٰ النبي المختار).

أيها الأسدُ.. وداعًا إلىٰ حين.

مسلك (٥٩):

وبكَ منك

كيف لا يذوبُ القلبُ وجَلا، ولا يشتعلُ الرأسُ شيبًا وقد استشرفَت عينُ بصيرته غيبَ القابِل من رحلته الكونية، ولاحَ له هولُ المطلَع، ووعورةُ ما سيركبُه من الطِباق، طبقًا عن طبق؟!

سكراتٌ وكُربات.. وحشةٌ وظلمات.. آهاتٌ وحسرات.. بعثٌ من القبور.. حشرٌ ونشور.

تطايرُ صحف الأعمال.. عرضٌ علىٰ الملك المتَعال.. ميزانٌ لمثاقيل الذرِّ.. مرورٌ علىٰ صراطٍ أدقَّ من الشعر.

عندما تطوفُ تلك الحقائقُ بالخاطر تضيق الأرض بما رحُبت، ويتلعثَمُ لسانُ المقال، ويُفصِحُ لسانُ الحال: ليت أمَّكَ لم تلدك يا فلان، ليتك كنت نسيًا منسيًا. وماذا عسىٰ (ليت) أن تفعل؟!

أين المفَرُّ؟!

إلىٰ من الملتجأ؟!

من يجيرُك من الله، ومن يعيذُك منه؟!

هنا يأتيك من الهدي النبويِّ الجوابُ الكافي والبلسَمُ الشافي، ليَسكُب في روعِك الأمنَ سكبًا.

إنَّه لا ملجأ لك من الله إلا إليه، فعُذ به منه، وفرَّ منه إليه، فلن تجدَ من دونه مُلتَحَدًا.

وما من شيءٍ تخافه إلا فررتَ منه ما خلا الله فإنك إن خفته فررتَ إليه، ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات:٥٠].

هل رأيتَ طفلًا صغيرًا تتوعَّدُه أمُّه بالعقوبة فيخشىٰ منها وهو لا يعلم قلبًا في الخلق أرحمَ به منه، ماذا يصنع؟

ألم تر أنَّه سيحتمي منها بها، وسيُلقي بنفسه في حجرها، ويتفيأ ظلَّ رأفتها، فيسكن فؤاده، وتطيب نفسه.

لقد رأىٰ الفضيلَ ولدُه في المنام بعد موته فسأله: ما صنع اللهُ بك؟

فقال: لم أجد للعبد خيرًا له من ربِّه.

سبحانك رباه.. ما ألطفك وما أرحمك!!

أيُّها المحِبُّ الوَجِل، كُن كذلك الطفل، ناجه بتضرُّع وإخباتٍ هامسًا: يامَن أنت أرحمُ بي من أمِّي.. ليس لي ربٌّ سواك.. أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك.

إنَّ في هذا الوِرد سرًّا عظيمًا ينتشلُك من عنُقِ زجاجةِ وحشتك إلىٰ سعةِ فضاءِ تفويضك.

هو أن تعتقدَ وأنت تلهجُ به أنَّ (منك) لا تتحقَّقُ إلا (بك).

*****

مسلك (٦٠):

ذكرى الدار

هو مثلُ غيره، يأكلُ ويشربُ ويتزوجُ ويلاعبُ أولادَه ويخرجُ معهم في نزهة.. يمارسُ حياته في متجره أو مصنعه، ويجتهدُ في دراسته في معهده أو جامعته، يقومُ بكل ذلك بنشاطٍ وتفاعلٍ وإيجابية.

يبني ويزرعُ.. يُعَلِّمُ ويصنعُ، هو كسائر الناس إلا أنَّ له خصوصيةً أخلصه الله بها دون غيره، هي أنَّ منازلُ الآخرةِ نَصبَ عينيه، ومشاهدُها لا تفارقُ مُخيّلته، فإذا عُرِضَ له من الجمال والنعيم ما يدهشُه حضرَت تلك المنازلُ لتُبدِّدَ ركونَ نفسه إلىٰ الفاني وتثاقلَها إلىٰ أرض السراب، فينطقُ لسانُ المشتاق: اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة.

وماذا يساوي كلُّ نعيمِ الدنيا بجانبِ صبغةٍ في نعيم الجنان؟!

وأيُّ شيءٍ في هذه العاجِلة يُشبِه أو يقاربُ دارَ السلام؟!

دارٌ سلِمَت من الأكدار والأقذار والأشرار.

لا موتَ ولا هرَمَ، لا همَّ ولا سقم.

نعيمٌ مقيمٌ وسعادةٌ أبدية.

هل تاقت نفسُك ليوم المزيد، وارتقت أمنياتُك إلىٰ نيلِ لذَّةِ النظر إلىٰ وجه الله المجيد؟!

هل تأمَّلتَ في صُحبة الأخيار علىٰ منابر النور، وكثبان المسك، والزعفران والكافور؟!

هذه الخَصيصةُ هي أشبهُ ما تكون بحال رجل وُعِد بانتقالٍ قريبٍ ومفاجئٍ من مسكنه المستأجَر المُتهالك في ناحيةِ ذلك الحيِّ القديم الصاخِب المُتشاكس أهلُه، إلىٰ قصرٍ منيفٍ واسع علىٰ رأس جبل، يطلُّ علىٰ مروج خضراءَ تتوسطُها بُحيراتٌ زرقاءُ صافيةٌ تسرُّ الناظرين، وفي القصر خدمٌ وحشَمٌ وسرورٌ وحبور، قد جُهِّز بكل وسائل الرفاهية والنعيم، هل يبقىٰ لذلك الرجل نظرٌ أو التفاتةٌ إلىٰ شيءٍ مما في مسكنه القديم أو يراه شيئًا أصلا؟!

سوف يتخطَّىٰ بنظره حدودَ الزمان والمكان، ويصبحُ حديثُه وشغلُه الشاغل عن دار إقامته الموعود الذي أخذ بلبِّه وامتلك شغافَ قلبه.

أيُّها المبارك..

تعرَّف أكثر علىٰ دار المتقين، اقترب منها حتىٰ تُصبحَ كأنَّها رأيُ عين، وكأنَّ نورَها الذي يتلألأ يلوحُ لناظرَيك، وكأنما نفحاتُ طيبها الزاكي تمخُرُ أنفك، وعليلُ نسماتها تنعِشُ رئتك.

طَوِّف قلبَك حولَ ذلك الجمال في تلك القمم، وحلِّق بروحك لتسمو عن التطلع إلىٰ سفاسف الهمم، واعلم أنَّ حضورَ ثواب العمل في ذهن العامل وارتقابَ المكافأة عليه هو أحدُ أهم روافد طاقته للقيام به.

فليكن ذكرىٰ الدار أكبرَ همِّك..

والسعيُ لها أعظمَ شغلك..

ونعوتُ جمالها حاديًا لك في سيرك..

لعلك تقولُ عما قريب:

لمثل هذا فليعمل العاملون.

تمَّ الجزءُ الأوَّلُ من هذه المسلكيات، ولله الحمدُ والمنَّة،
وسيكون له توابع وبواقي ما بقيَت الروحُ في الجسد وفتَحَ الفتاحُ العليم،
فلولاه ما جالَ فكرٌ ولا جرىٰ قلَم،
والحمد لله ربِّ العالمين.

د. جمال الباشا



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

*****

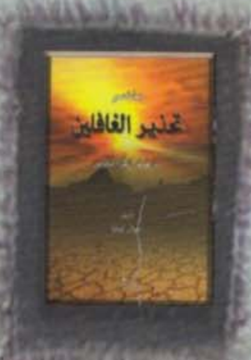

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



كتب للمؤلف









ISBN 9789957774103